نظرات وتأملات إيمانية

في وصايا لقمان في القرآن

دراسة تفسيرية موضوعية

النسخة التجريبية الثالثة ١٠- ١٤٢٧هـ

تقديم

د.محمد بن عبدالعزيز العواجي
الأستاذ المساعد بقسم التفسير كلية القرآن الكريم
الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية

١٤٢٧هـ

وصايا لقمان:

الفصل الأول: الوصية الأولى: شكر الله سبحانه وتعالى:

المبحث الأول: فضل الشكر وأهميته.

المبحث الثاني:حقيقة الشكر.

المبحث الثالث:ثمار الشكر.

الفصل الثاني:الوصية الثانية: النهي عن الشرك:

المبحث الأول:البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء.

المبحث الثاني: لماذا البدء بالتوحيد؟.

المبحث الثالث : لماذا النهي عن الشرك؟.

الفصل الثالث:الوصية الثالثة: الوصية بالوالدين:

المبحث الأول: الأخلاق والعقيدة.

المبحث الثاني: فضل بر الوالدين وأهميته.

المبحث الثالث: حقوق الأبوين.

الفصل الرابع:الوصية الرابعة: استشعار رقابة الله سبحانه وتعالى.

الفصل الخامس:الوصية الخامسة: الوصية بإقامة الصلاة:

المبحث الأول: فضل إقامة الصلاة وأهميتها.

المبحث الثاني: أقسام الناس في الصلاة.

المبحث الثالث: خطوات عملية لإقامة الصلاة.

الفصل السادس:الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

المبحث الأول: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثاني: حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

المبحث الثالث: تنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الفصل السابع:الوصية السابعة: الوصية بالصبر:

المبحث الأول: فضل الصبر وأهميته.

المبحث الثاني: أنواع الصبر.

المبحث الثالث: ابتلاء الله للصالحين.

المبحث الرابع: نماذج الصابرين.

المبحث الخامس: طرق اكتساب الصبر.

الفصل الثامن: الوصية الثامنة: النهي عن الكبر:

المبحث الأول: الأدلة على عظيم أمر الكبر والنهي عنه.

المبحث الثاني: طرق اكتساب التواضع.

الفصل التاسع: الوصية التاسعة: القصد في المشي:

المبحث الأول: القصد في المشي من صفات المؤمنين.

المبحث الثاني: هديه ﷺ في المشي.

المبحث الثالث: آداب المشي.

الفصل العاشر: الوصية العاشرة: خفض الصوت:

المبحث الأول: الحكمة في الأمر بغض الصوت.

المبحث الثاني: آداب الحديث.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصايا لقمان

تمهيد حول لقمان الحكيم ومعالم حكمته

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ١٢ ﴾.

"جمهور العلماء على أن لقمان ليس بنبي وإنما هو رجل صالح"(١).

والقصة تدل على: "أن الله أعطى هذا الرجل الصالح الحكمة، وهي: الفهم والعلم والتعبير، وأمره الله سبحانه وتعالى أن يشكر الله عز وجل على ما آته ووهبه من الحكمة التي خصه بها عن من سواه من أبناء جنسه، وهذا الشكر إنما يعود نفعه على الشاكرين، والله سبحانه غني عن شكر الشاكرين وإنما هذا الشكر لهم وثوابه يعود عليهم"(٢).

فالحكمة: "العقل والفهم والفطنة"، أو"هي: العقل والفقه والإصابة في القول من غير نبوة"(٣).

فدلت هذه الآية على أن الحكمة موهوبة من عند الله تعالى، يؤتيها الله من يشاء، كما قال تعالى: ﴿ يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ٢٦٩ ﴾ [سورة البقرة ٢٦٩].

ويُضرب بلقمان المثل في الحكمة، وحِكَمُه كثيرةٌ جداً، بعضها نقل إلينا، وبعضها لم ينقل، أو في نقله شوائب، وهذه الآيات تضمنت نصائح وتوجيهات جامعة ذكرها الله عنه في هذه السورة الكريمة وهي خير ما وصل إلينا.

وهذه الوصايا تمثل تكامل الشريعة الإسلامية، حيث أنها جمعت بين التوحيد والعبادة والأخلاق، فإنها شملت جميع نواحي الحياة، مع اختصار في اللفظ، وجزالة في المعنى ؛ حتى أن كل أمر من أمور الدين يمكن أن يدخل تحتها.

وتضمنت هذه الوصايا أموراً تدل على حكمة لقمان ﵁، ومن أبرزها:

أولا: أنه اهتم بإصلاح ولده:

فالرجل الحكيم هو الذي يهتم بخاصة أهله قبل أن يبدأ بغيرهم من الناس قال تعالى:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [سورة التحريم٦]، وهذه من صفات الأنبياء، فإنهم يبدأون في دعوتهم بدعوة أهليهم وأولادهم وإصلاحهم ، كما قال تعالى:﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢ ﴾ [سورة البقرة ١٣٢]. وكذلك النبي ﷺ أمره ربه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ٢١٤ ﴾ [سورة الشعراء ٢١٤]،وفعلاً بدأ في دعوته ﷺ، والأنبياء كلهم كذلك عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٦ / ٣٣٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٦/ ٣٣٥) .

(٣) روح المعاني (٧/ ٨٣) الجزء (٢١).

والنبي ﷺ نبه على أن الولد الصالح من الأمور التي تنفع الميت بعد موته: قال ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له)(٤). فهذا فيه دلالة قوية على أن الحكمة تقتضي الاهتمام بتربية الأولاد لكي ينفع الله بهم أهليهم، وأمتهم، وقبل ذلك أنفسهم في الحياة الدنيا يوم القيامة.

ثانيا: تلك الوصايا التي وصى بها ولده:

فقد وصاه بعشر وصايا فيها من الحكمة الشيء الكثير. "وصايا نافعة قد حكاها الله تعالى عن لقمان الحكيم ليمتثلها الناس ويقتدوا بها"(٥).

"فهذا لقمان الحكيم ينظر إلى ابنه نظرة رحمة وإشفاق، ومن أجل أن لا يتردى في مهاوي الزيغ والضلال، يعظه وعظاً جامعا مانعا، ويخرج له عصارة الحِكَمِ وأمهات المواعظ، من القلب إلى القلب"(٦).

وسنعرض تلك الوصايا ونستنتج منها مدى الحكمة التي وهبها الله للقمان لتكون لنا نبراسا في حياتنا نطبقها ونعمل بها،ونوصي بها أبنائنا،وهذه الحكمة خرجت منه وصايا لابنه وهو يعظه.

وإليك بيانها– وهي عشر وصايا – في عشرة فصول :

الوصية الأولى: شكر الله سبحانه وتعالى: وفيها : فضل الشكر وأهميته. وحقيقة الشكر. وثمار الشكر.

الوصية الثانية: **النهي عن الشرك**: وفيها :البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء. ولماذا البدء بالتوحيد؟. ولماذا النهي عن الشرك؟.

الوصية الثالثة: **الوصية بالوالدين**: وفيها: الأخلاق والعقيدة. وفضل بر الوالدين وأهميته. وحقوق الأبوين.

الوصية الرابعة: **استشعار رقابة الله سبحانه وتعالى.**

الوصية الخامسة: **الوصية بإقامة الصلاة**:وفيها: فضل إقامة الصلاة وأهميتها. وأقسام الناس في الصلاة. وخطوات عملية لإقامة الصلاة.

الوصية السادسة: **الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر**: وفيها: أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وحكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وتنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الوصية السابعة: **الوصية بالصبر**: وفيها: فضل الصبر وأهميته. وأنواع الصبر. وابتلاء الله للصالحين. ونماذج للصابرين. وطرق اكتساب الصبر.

الوصية الثامنة: **النهي عن الكبر**: وفيها: الأدلة على عظيم أمر الكبر والنهي عنه. وطرق اكتساب التواضع.

الوصية التاسعة: **القصد في المشي**: وفيها: القصد في المشي من صفات المؤمنين. وهديه ﷺ في المشي. وآداب المشي.

الوصية العاشرة: **خفض الصوت**: وفيها: الحكمة في الأمر بغض الصوت. وآداب الحديث.

---

(٤) صحيح مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٧) .

(٦) لقمان الحكيم وحكمه– محمد يوسف – دار القلم (١٤٠)

الفصل الأول

الوصية الأولى: شكر الله سبحانه وتعالى

المبحث الأول

فضل الشكر وأهميته

لا شك أن شكر الله تعالى على نعمه العظيمة التي لا تحصى ولا تعد واجب على العباد، وتتضح تلك الأهمية في أن الأمر به والحث عليه أمر ظاهر في نصوص القرآن الكريم فمن ذلك:

١ -أن الله أمر عباده بالشكر في أكثر من موضع في القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿ وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ ﴾[سورة النحل ١١٤] وقال تعالى: ﴿ فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ١٧ ﴾[سورة العنكبوت ١٧].

٢ - وأخبر الله أن الشاكر لله هو العابد له سبحانه فقال تعالى: ﴿ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴾ [سورة البقرة ١٧٢] بل إن الله سبحانه يطلب من عباده الشكر على نعمه قال تعالى: ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦ ﴾[سورة المائدة ٦].

٣ -وبين الله تعالى جزاء الشاكرين وعقاب الكافرين، فقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ ٧ ﴾[سورة إبراهيم ٧].

٤ -وقال تعالى منبها أن الله لا يعذب عباده إذا شكروه:﴿ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧ ﴾[سورة النساء ١٤٧].

٥ -أمر الله عباده بالشكر وأرجع عاقبته لهم: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢ ﴾.

٦ -وقد قَسَّمَ الله تعالى الناس إلى كفور وشكور، وبين مصير هؤلاء وهؤلاء، فقال: ﴿ إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧ ﴾[سورة الزمر ٧]

٧ -وقد مدح الله الشاكرين وجعل جزائهم إليه قال تعالى: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[سورة آل عمران ١٤٤]، ﴿ وَسَنَجۡزِي ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥ ﴾[سورة آل عمران ١٤٥]، ﴿ أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ٥٣ ﴾[سورة الأنعام ٥٣].

٨ -وبَيّنَ الله تعالى أن المستفيدين من آياته هم أهل الشكر قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨﴾[سورة الأعراف ٥٨].

٩ -وذم وتوعد المتخلفين عن وعدهم له بالشكر فقال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ

يَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[سورة يونس ٢٢-٢٣].

١٠ -وكان ﷺ يقوم الليل حتى تتورم قدماه، فيقال له: أتصنع هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فيقول رسول الله ﷺ: (أفلا أكون عبدا شكورا)(٧).

١١ -و"أخبر الله سبحانه أن عدو الله إبليس جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عن الشكر، وذلك لما عرف عظم قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها وذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[سورة الأعراف ١٦-١٧]"(٨).

"أي: لا تجد أكثرهم عابدين، ولا تجد أكثرهم متبعين لما أنزل الله، فليس الشكر كلمة تقال باللسان، كما أن الإيمان بالله ليس كلمة تقال، فهي كلمة تحتاج إلى عمل كما أن الإيمان يحتاج إلى عمل ومن هنا نفهم خطورة التهديد الشيطاني لبني آدم"(٩)، ولذلك فإن الذين يشكرون الله تعالى قليل، قال تعالى:﴿ ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة سبأ ١٣].

المبحث الثاني

حقيقة الشكر

الشكر ليست كلمة تقال باللسان، أو زخرفاً من القول يخلو من المضمون، ولكنه اعتقاد وقول وعمل كما أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل.

فحقيقة الشكر ومضمونه:"الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة"(١٠).

ومما عبر به السلف الصالح عن الشكر ومضمونه:"لا تعصي الله بنعمه"، وقال آخر:"ألاَّ ترى معه شريكا في نِعَمِهِ"، وقيل:"هو الإقرار بالعجز عن الشكر"(١١).

"وبهذا يتبين أن الشكر مبني على خمس قواعد:

١ -خضوع الشاكر للمشكور.

٢ -وحبه له.

٣ -واعترافه بنعمته.

٤ -وثنائه عليه بها.

٥ -وأن لا يستعملها فيما يكره"(١٢).

---

(٧) صحيح البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠) . صحيح مسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(٨) فقه الأدعية والأذكار- الجزء الأول – ص (٢٧٢).

(٩) دراسات قرآنية بتصرف (١٩٨) .

(١٠) فقه الأدعية والأذكار- القسم الأول – ص(٢٧٥) .

(١١) تفسير النسفي (٤/ ١٣٠) .

(١٢) مدارج السالكين (٢/ ٢٤٤) مختصراً .

وَمَحَلُّ الشكرِ:"يكون بالقلب خضوعاً واستكانةً ومحبةً، وباللسان ثناءً واعترافاً،وبالجوارح طاعة وانقياداً"(١٣).

-**أما الشكر بالقلب**: فهو أن يقصد الخير ويضمره للخلق كافة، ولا يتعلق قلب المؤمن إلا بالله في جميع أنواع العبادات القلبية من خوفٍ ورجاءٍ وتوكلٍ ورضا...وغيرها.

-**أما الشكر باللسان**: فهو إظهار الشكر بالتحميد، والتحدث بنعمة الله تعالى بين الناس، ورد النعمة لله تعالى أولا وآخراً، أي إظهار الرضا عن الله تعالى ، قال تعالى:﴿ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١ ﴾[سورة الضحى ١١].

-**أما شكر الجوارح**: فهو استعمالها في طاعة الله تعالى، واجتناب استعمالها في معصية الله.

فإن الله سبحانه رزق العبد سمعاً وبصراً وجسماً، فمن شُكْرِ الله على هذه النعم أن يستعملها في طاعته سبحانه ولا يستعملها في معصيته.

فلا يسمع الإنسان بأذنه غناء ولا نميمة،ولا أيَّ معصيةٍ لله بل يسمع بها الخير والقرآن....وغيرها من الصالحات.

ولا يطلق الإنسان بصره فيما حرم الله تعالى، بل يغض بصره ويستعمله في الخير والعمل به...

وقِسْ على ذلك جميع النعم التي أنعم الله علينا بها.

والشكر يكون لله في كل شيء، والدليل على ذلك قوله تعالى بعد الوصية بالأبوين: ﴿ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ۝١٤ ﴾ لأن الله سبحانه هو المنعم عليك أولاً، فأي نعمة فهي من الله أولاً، وما العبد إلا وسيلة لإيصال هذه النعمة.

ويجب أن يكون الشكر لله أول واجب يؤديه العبد، ليتحقق له الكمال والخضوع للمنعم المتفضل المحسن سبحانه وتعالى.

ونعم الله لا تعد ولا تحصى قال تعالى:﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلۡتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ ۝٣٤ ﴾ [سورة إبراهيم ٣٤].

ومن هنا وجب على المؤمن في مقابل هذه النعم أن يشكرها، بل أن يكون كثير الشكر لها، ومجدداً لها الشكر في كل حين، ولو بعد انقضاءها، فإن نعمة الباري جليلة وعظيمة، وتلك النعمة لا يزال في رقبة العبد أثرٌ وبقيةٌ، ولذا امتن الله علينا بخلق أبينا آدم، وإرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام، ونحو ذلك.

المبحث الثالث

ثمار الشكر

١- التوفيق والسداد:

"أن يُوفق الإنسان الشاكر ويُسدد إلى الحق، في أقواله وأفعاله، فيكون بهذا حكيما"(١٤). وهذا كما حصل للقمان رضي الله عنه.

٢- من يشكر الله تعالى على نعمة فإنما يشكره لأجل نفسه:

---

(١٣) مدارج السالكين.(٢/ ٢٤٦).

(١٤) موضوعات سور القرآن (٢٠) .

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝١٢ ﴾ فإن الله سبحانه غَنِيٌّ عن خلقه.

٣- أن الله يعطيه المزيد ويبارك له مطلقاً:

فيشمل النوع والعدد وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾[سورة إبراهيم ٧].

٤- الجزاء الحسن والكثير من الله تعالى:

كما قال الله تعالى: ﴿ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٥ ﴾[سورة آل عمران ١٤٥].

٥- تحقيق العبودية لله والرضا بذلك(١٥):

قال تعالى: ﴿ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [سورة الزمر ٧].

٦- الأمن من عقوبة الله:

قال تعالى عن قوم سبأ حينما أعرضوا عن شكر الله ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ۝١٧ ﴾ [سورة سبأ ١٥-١٧]، قال العلماء: أعرضوا عن الشكر.

٧- السرور والطمأنينة والرضا:

وهي من أعلى مقامات الإيمان(١٦) وذلك لقول النبي ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن: **إن أصابته سراء شكر** فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)(١٧).

٨- تحقيق متابعة الأنبياء عليهم السلام:

فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [سورة النحل ١٢١]والنبي ﷺ كان يقول: (أفلا أكون عبدا شكورا)(١٨).

٩- استجلاب صفات المدح والكمال لبعضها البعض:

فالصبر رفيق الشكر(١٩) كما في الحديث المتقدم: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، **إن أصابته سراء شكر** فكان خيرا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له)

١٠- حصول عاجل الثواب:

في الدنيا وفي الآخرة(٢٠)، كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧ ﴾[سورة إبراهيم ٧].

---

(١٥) مدارج السالكين (٢/١٨٥) .

(١٦) طريق الهجرتين (٥٠٨) ، مدارج السالكين (٢/٢٠٩).

(١٧) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير(٢٩٩٩).

(١٨)صحيح البخاري كتاب التهجد باب قيام النبي ﷺ الليل حتى تتورم قدماه (١١٣٠) . صحيح مسلم كتاب الجنة والنار باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).

(١٩) عدة الصابرين (١٢٣-١٢٤).

(٢٠) مدارج السالكين (٢/٢٥٢).

الفصل الثاني

الوصية الثانية: النهي عن الشرك

إن البدء بالتوحيد والنهي عن الشرك أول دعوة الأنبياء قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ لُقۡمَٰنُ لِٱبۡنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣ ﴾. الوعظ: هو زجر مقترن بتخويف، أو تذكير بالخير فيما يرق له القلب(٢١). يا بني: هذا تصغير إشفاق ومحبة لا تصغير تحقير(٢٢).

وهذه أعظم الوصايا وأهمها التي وصى بها لقمان ابنه، وهذه هي سنة الأنبياء عليهم السلام في الدعوة إلى الله، يبدؤون أولا بتصحيح المعتقد عند الناس، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ ﴾ [سورة النحل ٣٦]. وهذا من حكمته حيث أراد أن يتبع سنة الله في الأنبياء فيؤسس عند ابنه أولا أساس التوحيد.

وسيتبين لنا ذلك من خلال المباحث التالية:

المبحث الأول

لماذا البدء بالتوحيد؟

١ - لأن التوحيد يُنْجي العبد من النار: قال ﷺ: (يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا اله وفي قلبه وزن برة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن ذرة من خير)(٢٣).

٢ - تحصيل الأمن والهداية من الله: قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾ [سورة الأنعام ٨٢].

٣ - لأن الأمر بالتوحيد هو أصل دعوة الأنبياء وما بعثوا إلا من أجله ولذا تضافرت دعوات الرسل على تحقيق التوحيد: قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾[سورة النحل ٣٦] فالمستجيب قد قبل دعوة المرسلين جمعاً.

٤ - لأن رسول الله ﷺ أمر بالبدء بالتوحيد: فعن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال: (إنك تقدم قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله......)(٢٤)، وشواهد هذا كثيرة في قصص الأنبياء وأخبارهم.

٥ - لأن التوحيد ينجي من المصائب: قال تعالى:﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾[سورة الأنبياء ٨٧].

---

(٢١) روح المعاني (٢١/ ٨٥) .

(٢٢) روح المعاني (٢١/ ٨٤) .

(٢٣) صحيح البخاري كتاب الإيمان باب زيادة الإيمان ونقصانه (٤٤)، ومسلم كتاب الإيمان باب أدنى أهل الجنة مترلة فيها (١٩٢).

(٢٤) صحيح البخاري كتاب التوحيد باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى (٧٣٧١) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام (١٩) .

٦ – لأن الله أخذ الميثاق على بني آدم في تحقيق التوحيد: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢﴾[سورة الأعراف ١٧٢]،

٧ – لأن التوحيد هو ميثاق الله لجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام: قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٧﴾[سورة الأحزاب ٧]،قال قتادة:"تقدم الله إلى عبادة في نقض الميثاق ونهى عنه في بضع وعشرين آية"(٢٥).

٨ – أمر الله بالتوحيد الأمة التي قبلنا: وأقربها إلينا أمة بني إسرائيل من يهود ونصارى كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾[سورة القرة ٨٣].

٩ – لأن التوحيد أصل الفطرة التي خلق الله بني آدم عليها: قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾[سورة الروم ٣٠]، وقال ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)(٢٦)، وجاء في الحديث القدسي: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم)(٢٧).

١٠ –لأن التوحيد أصل صلاح الناس: في الدنيا والآخرة(٢٨)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٢ ﴾[سورة المائدة ٥].

المبحث الثاني

لماذا النهي عن الشرك؟

ورد عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن مسعود ﵁ قال: لما نزلت ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ٨٢ ﴾ [سورة الأنعام ٨٢]، شق ذلك على أصحاب رسول الله، فقالوا: أينا لم يلبس

---

(٢٥) للاستزادة انظر تفسير ابن كثير (٣٤٧/٢) ، معارج القبول (١/ ٩١-٩٧) ، زاد المعاد (١٦٥/١).

(٢٦) صحيح مسلم كتاب القدر باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٨).

(٢٧) صحيح مسلم كتاب الجنة باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٢٨٦٥).

(٢٨) للاستزادة انظر الفتاوى الكبرى (٨٩/١) ، منهاج السنة (٢٩٠/٧) ، بدائع الفوائد (٥٢٥/٣).

إيمانه بظلم؟! فقال رسول الله ﷺ: (إنه ليس بذلك!! ألا تسمع قول لقمان: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣ ﴾)(٢٩).

فنهى الله عباده عن الشرك لعدة أسباب:

١ -لأن الشرك بالله ظلم عظيم: قال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠٦﴾[سورة يونس ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٢٥٤ ﴾ [سورة البقرة ٢٥٤]."وما أعظم وصف الشرك أنه ظلم عظيم، فأي ظلم أفظع من أن يخلقك الله وتعبد غيره، ويرزقك وتشكر غيره، ويسوق إليك النعم فتهب إلى غيره"(٣٠).

"وكون الشرك ظلم لما فيه من وضع الشيء في غير موضعه، وكونه عظيما لما فيه من التسوية بين من لا نعمة إلا منه، ومن لا نعمة له"(٣١).

٢ -ولأن الشرك بالله سبب في إحباط الأعمال وعدم قبولها: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ ﴾[سورة الزمر ٥٦].

٣ -ولأن الشرك بالله سبب في عدم مغفرة الذنوب والسيئات:قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ۝١١٦ ﴾ [سورة النساء ١١٦].

٤ الشرك بالله سبب للخلود في النار: قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ ۝٣٦ ﴾ [سورة فاطر ٣٦].

٥ الشرك بالله أصل فساد الناس: قال تعالى: ﴿ كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤ ﴾ [سورة المطففين١٤] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَرۡكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْ ﴾ [سورة النساء ٨٨]، ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ ﴾ [سورة المائدة ١٣] ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ۝٣٠ ﴾ [سورة الشورى ٣٠](٣٢).

٦ الشرك سبب في إلقاء الرعب في قلوب أهله واجتيال الشياطين لهم: قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ۝٨٣ ﴾[سورة مريم ٨٣]، ﴿سَنُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ بِمَآ أَشۡرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا ﴾[سورة آل عمران ١٥١].

وبعد أن بين لقمان لولده أصل الاعتقاد ونهاه عن الشرك، أمره أن يقوم بالتكاليف الشرعية التي تدل على كمال اعتقاده وتكمل إيمانه بالله تعالى، فجاءت الوصايا الأخرى.

---

(٢٩) صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ۝٨٢ ﴾ (٤٧٧٦). صحيح مسلم كتاب الإيمان باب صدق الإيمان وإخلاصه (١٢٤) .

(٣٠) من لطائف التفسير– (١٠٥) .

(٣١) روح المعاني (٢١/ ٨٥) .

(٣٢) للاستزادة انظر مدارج السالكين (٢/ ٢٥) ، بدائع الفوائد (٣/ ٥٣٥) ، تيسير العزيز الحميد (١/ ٥٠٣) ، مجموع الفتاوى (١٥/ ١٢) ، كتاب الفوائد لابن القيم (٨١).

الفصل الثالث

الوصية الثالثة: بالوالدين

المبحث الأول

الأخلاق والعقيدة

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

من هنا تبدأ الوصايا بأخلاق لا إله إلا الله. وهي قواعد ومنارات تطبيق التوحيد في الواقع، حيث أن الإيمان قول وعمل، فلا إيمان كامل بغير عمل، وهذا العمل إنما هو عبادات، ومن هذه العبادات الأخلاق الفاضلة، وهي عبارة عن: سلوكيات يتحلى بها ويعمل بها المسلم، حتى إذا ظهر أثرها عليه قيل هذا من أثر الإيمان الذي علمه وأقر به بلسانه وقلبه فظهر على جوارحه.

فهنا يوصي لقمان الحكيم ابنه بعد التوحيد، ببر والديه وخاصة الأم فالوصية في الآية عامة للوالدين، وفي تسمية الأم في الآية دليل على أن أمر الأم أشد في الوصية بالبر والإحسان.

فالأم هي التي لقيت الأمرَّيْن في حمله وهناً على وهنٍ، أي:"جهداً على جهدٍ، ضعفاً على ضعف"(٣٣). ثم بعد ذلك يأتي الإرضاع والفطام وما فيهما من مشقة وتعب.

ومناسبة الوصية بهما لما قبلها وجوب "الشكر: لله على نعمة الإيمان وللوالدين على نعمة التربية"(٣٤).

وفي الآيات تنبيه على عدة أمور:

١ -"أن الاهتمام بالوالدين هو شكر لله تعالى أولا على نعمة الأبوين وتربيتهما لولدهما.

٢ -أن شكر الله يجب أن يسبق شكر المخلوقين.

٣ -أن كل أخلاقيات الإسلام هي ميثاق بين الإنسان وبين الله مباشرة، فهي تصل للآخرين من خلال صلة الإنسان بالله، فأخلاقيات الإنسان نحو والديه – وهي البر بهما – تصل إلى الوالدين من خلال شكر الإنسان لربه وعبادته، وكذلك أخلاقيات أي أمر من الأمور، فالصدق أمر من الله أولا ثم هو تعامل جيد مع الناس، والوفاء بالعهد هو أمر من الله أولا ثم تعامل مع الناس"(٣٥).

"فالعقيدة لا بد أن تنعكس على الإنسان وسلوكه، فإذا آمن المسلم إيمانا يقينيا بالله سبحانه، وبعلمه وبمراقبته؛ كان هذا الإيمان محدداً لسلوكه كفرد، وسلوك الجماعة كأمة"(٣٦).

---

(٣٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٦) .

(٣٤) لقمان الحكيم وحكمه– محمد يوسف (١٦٠) .

(٣٥) دراسات قرآنية (٢٠٠) بتصرف.

(٣٦) معالم أصول التربية من خلال وصايا لقمان – عبد الرحمن الأنصاري – (ص٤٤٣) .

فالبر عبادة، والصدق عبادة، والوفاء بالعهد عبادة، وكل الأخلاق الإسلامية عبادة لله تعالى لا تصل إلى الناس إلا عن طريق الإيمان بالله تعالى، وذلك بعبادته سبحانه بهذه الأخلاق والتعامل بها بين الناس.

٤- أن هذا البر يكون في كل شيء، إلا إذا أمراه والداه بالشرك، أو معصية الله: فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. قال تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾.

٥- هذا البر يكون حتى للأبوين الكافرين، فالاختلاف في العقيدة والأمر بعدم الطاعة في معصية الله، لا يسقط حق الوالدين في المعاملة الحسنة الطيبة والصحبة الكريمة، قال تعالى: ﴿ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا ﴾. وعن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: (أنزلت فيّ هذه الآية: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا ﴾ قال: كنت رجل باراً بأمي فلما أسلمت قالت: يا سعد، ما هذا الذي أراك قد أحدثت؟ لتدعن دينك هذا أو لا آكل ولا أشرب حتى أموت، فتعير بي؛ فيقال:"يا قاتل أمه"!! فقلت: لا تفعلي يا أمه، فإني لا أدع ديني هذا لشيء. فمكثت يوما وليلة لم تأكل، فأصبحت قد جهدت، فمكثت يوم وليلة أخرى لا تأكل، فأصبحت قد اشتد جهدها، فلما رأيت ذلك قلت: تعلمين يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفسا، ما تركت ديني هذا لشيء، فإن شئت فكلى، وإن شئت لا تأكلي، فأكلت)⁽٣٧⁾.

٦- "والآية هنا نبهت على أن الصحبة في الدنيا بالمعروف، فلا يجوز أن يبرهما باستغفار في حياتهما، ولا بعد موتهما، قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ ﴾ [سورة التوبة ١١٣]"⁽٣٨⁾.

٧ ~~-~~وفي الآية النهي عن صحبة الكفار والفساق، والترغيب في صحبة الصالحين، فالإتباع والولاء يكون للمؤمنين خاصة، ولمن أخلص لله التوحيد، ثم يوم القيامة يجازي الله سبحانه كل على عمله، قال تعالى: ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾.

ولعظم الأمر ببر الوالدين سنلقي الضوء على بعض حقوق الوالدين وآداب التعامل معهما.

---

(٣٧) أسد الغابة- ابن الأثير (١٢٦/٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٧) .

(٣٨) موضوعات سور القرآن (٢٢).

المبحث الثاني

فضل بر الوالدين وأهميته

تبرز أهمية بر الوالدين من خلال الآيات في النقاط التالية:

١- تكرار الأمر ببرهما وتقديمها بعد حق الله تعالى:

وذلك في مواضع كثيرة من القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[سورة النساء ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[سورة الإسراء ٢٢]، وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًاۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًاۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ﴾[سورة الأحقاف ١٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أبوك)(٣٩).

وجاء رجل إلى رسول الله يستأذنه في الجهاد فقال رسول الله ﷺ: (أَحَيٌّ والداك؟) قال: نعم. فقال رسول الله ﷺ:(ففيهما فجاهد)(٤٠).

"وقد تكررت النداءات في القرآن والسنة بالوصية بالوالدين، و لم ترد توصية الوالدين بالولد إلا قليلا، وذلك أن الفطرة تتكفل وحدها برعاية الوليد من والديه، فالفطرة مدفوعة إلى رعاية الجيل الناشئ لضمان امتداد الحياة كما يريدها الله تعالى، وإن الأبوان ليبذلان لأولادهما من أجسامهما وأعمارهما وأعصابها ومن كل ما يملكان من عزيز وغال، من غير تأفف ولا شكوى، بل في غير انتباه ولا شعور بما يبذلانه. وأما الوليد فهو في حاجة على الوصية المكررة ليلتفت إلى الجيل المضحي المُدبِر بعدما سكب عصارة عمره وروحه وأعصابه للجيل المتجه إلى المستقبل"(٤١).

٢- أن بر الوالدين من صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

قال تعالى مادحاً يحي عليه السلام:﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) ﴾[سورة مريم ١٤]، وقال تعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) ﴾ [سورة مريم ٣٢]، وقال تعالى: حاكيا عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) ﴾ [سورة مريم ٤٧]، وذكر الله تعالى دعاء نوح عليه السلام: ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا (٢٨) ﴾ [سورة نوح ٢٨].

٣- لفت النظر إلى المشقة التي يبذلها الأبوان:

---

(٣٩) صحيح البخاري كتاب الأدب باب من أحق الناس بحسن الصحبة (٥٩٧١). صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٨).

(٤٠) صحيح البخاري كتاب الأدب باب لا يجاهد إلا بإذن والديه (٥٩٧٢) ، صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب بر الوالدين وأنهما أحق به (٢٥٤٩) .

(٤١) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٨٨) .

فالأم حملت الطفل في بطنها تسعة أشهر مشقة على مشقة كما في الآية هنا ﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ ﴾ وفي موضع آخر:﴿ وَوَصَّيۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيۡهِ إِحۡسَٰنًاۖ حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ وَحَمۡلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهۡرًاۚ ﴾ [سورة الأحقاف ١٥].

حملته ولا يزيدها نموه في أحشائها إلا ثقلاً وضعفاً، وتكديراً عليها في طعامها وشرابها ومنامها، وعند الولادة ترى الموت بعينها، ولكن ما أن ترى طفلها بجانبها إلا وهي قد نسيت كل آلامها، ثم بعد ذلك جندت نفسها لخدمته ورعايته، تضمه إلى صدرها وتغذيه من صحتها، وتقدم راحته على راحتها، وتحوطه بعنايتها ورعايتها، فطعامه درها، وبيته حِجْرُها، ومركبه يَدُها وصَدْرها وظَهْرُها، تصبر على صراخه وبكائه، وتغسل عنه أذاه، وتحن إليه وتهواه، تجوع ليشبع هو، وتسهر لينام هو، وتتعب ليستريح هو، وهي على ذلك مدى الحياة.

أما الأب فكم تعب من أجل ابنه، وكم سعى واجتهد في تحقيق مصلحته، يكد ويكدح، وينتقل في الأسفار، ويتحمل الأخطار، من أجل راحته وتأمين مستقبله، يبذل الكثير من وقته وجهده من أجل رعايته وتربيته، كما في الآية: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ٢٤﴾[سورة الإسراء ١٤].

وفي الرعاية أيضاً: ﴿ وَٱلۡوَٰلِدَٰتُ يُرۡضِعۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ حَوۡلَيۡنِ كَامِلَيۡنِۖ لِمَنۡ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾[سورة البقرة ٢٣٣].

إن حق الوالدين عظيم وفضائلهما لا تعد ولا تحد، وحبهما لولديهما هو أصدق الحب ونصحهما هو أنفع النصح.

٤- النظر إلى الأجر العظيم والثواب الكبير على بر الأبوين:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (رضى الرب في رضى الوالد وسخط الرب في سخط الوالد)[٤٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي اله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ أي الأعمال أفضل؟ قال:"إيمان بالله ورسوله"قيل: ثم ماذا؟ قال:"بر الوالدين"قيل: ثم ماذا؟ قال"الجهاد في سبيل الله"[٤٣]

وأيضا قول النبي ﷺ (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف) قيل من يا رسول الله؟ قال (من أدرك أبويه عند الكبر أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة)[٤٤].وغيرها من النصوص الدالة على عظم أجر بِرِّ الوالدين.

---

[٤٢] سنن الترمذي كتاب البر والصلة باب ما جاء من الفضل في رضى الوالدين (١٨٩٩). وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٥٤٩).

[٤٣] صحيح البخاري كتاب الحج باب فضل الحج المبرور (٥١٩) . ومسلم باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال (٨٥).

[٤٤] صحيح مسلم كتاب البر والصلة والأدب باب رغم انف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة (٢٥٥١) .

المبحث الثالث

حقوق الأبوين

للأبوين حقوقٌ كثيرةٌ جداً نجمل أهم تلك الحقوق في نقاط:

١ - الإحسان إليهما بالقول والفعل: قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [سورة الإسراء ٢٣]. أي: لا تظهر لهما التأفف والتبرم منهما ولا ترفع صوتك عليهما وقل لهما قولا لينا لبقا لطيفا.

٢ - التواضع لهما: قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾[سورة الإسراء ٢٤] أي: تواضع لهما بفعلك رحمة بهما وتذللاً لهما.

٣ - الدعاء لهما في حياتهما وبعد مماتهما: قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الإسراء ٢٤]. يقول النبي ﷺ: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعوا له)(٤٥)،"فادع الله لوالديك بالرحمة، وقل رب ارحمهما،وتعطف عليهما بمغفرتك ورحمتك كما تعطفا علي في صغري، فرحماني وربياني صغيراً"(٤٦).

٤ - طاعتهما في المعروف: والدليل على ذلك كثرة الأدلة الآمرة بطاعة الأبوين، وقول الله تعالى: ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴿١٥﴾ ﴾."فقد دلت الآية على وجوب طاعة الأبوين بالمعروف من وجهين:

أ- أنه تعالى نهى عن طاعتهما فيما يأمران به ولدهما من معصية الله تعالى والإشراك به. فدل ذلك على أنهما إذا أمراه بشيء لا معصية فيه وجب عليه طاعتهما.

ب- أنه أمر الولد بمصاحبة والديه بالمعروف ولو كانا يجاهدانه على الشرك، وليس من المصاحبة بالمعروف عصيان أمرهما والخروج عن طاعتهما."(٤٧).

ومن وجوب طاعة الوالدين أن الجهاد في سبيل الله - إذا لم يكن فرض عين - فإنه لا يصلح ولا يجوز الخروج إليه إلا بإذن الوالدين،"فمن كان أحد أبويه مسلما لم يجز له الجهاد تطوعا إلا بإذنه، روي ذلك عن عمر وعثمان رضي الله عنهما، وبه قال مالك والأوزاعي، والثوري والشافعي وسائر أهل العلم... لأن بر الوالدين فرض عين، والجهاد فرض كفاية، وفرض العين يقدم"(٤٨) ولحديث (ففيهما فجاهد) المتقدم.

٥ - الاستغفار لهما بعد موتهما: قال تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [سورة إبراهيم ٤١]، وفي الحديث: (أو ولد صالح يدعوا له)(٤٩).وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله هل بقي من بر أبواي شيء أبرهما به بعد موتهما؟ فقال: (نعم،

---

(٤٥) صحيح مسلم كتاب الوصية باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته (١٦٣١).

(٤٦) تفسير الطبري (١٥/ ٥٠) .

(٤٧) فقه التعامل مع الناس (٢٥٠) .

(٤٨) المغني (١٣/ ص ٢٥) .

(٤٩) تقدم تخريجه.

الصلاة عليهما، **والاستغفار لهما**، وإنفاذ عهدهما بعد موتهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما)(٥٠).

٦ - إنفاذ عهدهما: وذلك بتنفيذ وصيتهما بعد موتهما والاستمرار على الشيء الذي كانا عليه من أعمال البر والخير، كما جاء في الحديث السابق (وإنفاذ عهدهما).

٧ - صلة الرحم التي لا توصل إلا بهما: وذلك بصلة الأرحام التي من طرفهما: كالأعمام والعمات والأخوال والخالات، والأجداد والجدات، وأولادهم، لقوله ﷺ: (إن أبر البر صلة الولد أهل ود أبيه بعد أن يولى)(٥١). وقوله عليه السلام: (وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما).

٨ - إكرام صديقهما: كما في الحديث (وإكرام صديقهما).

هذه ومضة سريعة على بعض حقوق الوالدين وهناك آداب وواجبات أخرى تنبثق من هذه الآداب والواجبات لم نذكرها اختصاراً(٥٢).

---

(٥٠) سنن أبي داود كتاب الأدب باب في بر الوالدين (٥١٤٢) . وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٧٢/٢ح١٤٨٢).

(٥١) صحيح مسلم كتاب البر والصلة باب فضل صلة أصحاب الأب والأم ونحوهما (٢٥٥٢).

(٥٢) للاستزادة حول هذا الموضوع انظر كتاب فقه التعامل مع الناس د.الفوزان ، وكتاب الآداب لعبد العزيز الشلهوب ، وكتاب الآداب الإسلامية لعبد العزيز ندا وغيرها من كتب الآداب.

الفصل الرابع

الوصية الرابعة: استشعار رقابة الله سبحانه وتعالى

المبحث الأول

الرقابة من خلال الآية

قال تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ١٦ ﴾.

"إن المظلمة أو الخطيئة لو كانت مثقال حبة من خردل أحضرها الله يوم القيامة حين يضع الموازين القسط قال تعالى:﴿ وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ٤٧ ﴾ [سورة الأنبياء ٤٧]،ولو كانت تلك الذرة محصنة محجبة في داخل صخرة صماء، أو غائبة ذاهبة في أرجاء السماوات والأرض فإن الله يأت بها لأنه لا تخفى عليه خافية"(٥٣).

"وفي التعبير بلفظ الصخرة والسماوات والأرض بيان أن هذا الشيء الحقير وهو غاية في الصغر؛ لو كان في أخفى مكان وأحرزه كجوف الصخرة، أو أبعد مكان في السماء، أو أظلم مكان في جوف الأرض يأت به الله سبحانه"(٥٤).

فهنا يوصي لقمان الحكيم ابنه بتقوى الله عن طريق ضرب المثل فيقول له إن أصغر الأشياء وأحقرها إذا كانت في وسط الصخرة أو في السماوات أو الأرض يأت بها الله من سعة علمه وتمام خبرته.

"والمقصود من هذا: الحث على مراقبة الله والعمل بطاعته، مهما أمكن والترهيب من عمل القبيح قَلَّ أو كثر"(٥٥).

المبحث الثاني

الشواهد على المراقبة من الكتاب والسنة

المراقبة هي:"دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه وتعالى على ظاهره وباطنه"(٥٦).

والمعنى: أي عمل، سواء كان كبيراً أو صغيراً، مهما كان حجمه، ومهما خفي عن أعين الناس، فإن الله يعلمه؛ فقدرة الله فوق كل شيء، فانتبه أن تعمل شيئاً وأنت تظن أن الله لا يعلمه. كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ ١٨ ﴾[سورة ق ١٨].

---

(٥٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٧).

(٥٤) روح المعاني (٧/ ٨٨) الجزء (٢١) .بتصرف.

(٥٥) تفسير السعدي (ص ٥٩٧) .

(٥٦) مدارج السالكين(٢/٦٨).

وفي هذا المعنى يقول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَـٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَـٰذَا ٱلْكِتَـٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾ [سورة الكهف ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [سورة الشعراء ٢١٩-٢٢٠]. وقال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة غافر ١٩].

وقد ورد أن النبي ﷺ قال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك)(٥٧)، "أراد بالإحسان الإشارة إلى المراقبة وحسن الطاعة فإن من راقب الله أحسن عمله"(٥٨).

وفي قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار يتضح هذا المعنى جلياً، فعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: (بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالاً عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم.

فقال أحدهم: اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولي صبية صغار، أرعى عليهم، فإذا أرحت عليهم(٥٩) حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني، وأنه نأى بي ذات يوم الشجر، فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما، فحلبت كما كنت أحلب، فجئت بالحلاب فقمت عند رؤوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقي الصبية قبلهما، والصبية يتضاغون(٦٠) عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منه فرجة نرى منه السماء، ففرج الله منه فرجة فرأوا منها السماء.

وقال الآخر: اللهم إنه كان لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال من النساء، وطلبت إليها نفسها، فأبت، حتى آتيها بمائة دينار، فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها، فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبدالله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه(٦١) فقمت عنها، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة، ففرج لهم.

وقال الآخر: اللهم إني كنت استأجرت أجيراً بفرق أرز، فلما قضى عمله قال: أعطني حقي، فعرضت عليه فرقه فرغب عنه، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقراً ورعائها، فجاءني فقال: اتق الله ولا تظلمني حقي، فقلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها، فقال: اتق الله ولا تستهزئ بي، فقلت: إني لا أستهزئ بك، خذ ذلك البقر ورعائها، فأخذه فذهب به، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ففرج الله ما بقي)(٦٢).

---

(٥٧) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه وسؤال جبريل عليه السلام عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة ، صحيح البخاري(٥٠)، صحيح مسلم (٩٠).

(٥٨) لسان العرب(١٣/١١٥-١١٧).

(٥٩) أرحت عليهم : أي إذا رددت الماشية من المرعى إليهم .

(٦٠) يتضاغون : أي يصيحون ويستغيثون من الجوع .

(٦١) لا تفتح الخاتم إلا بحقه : الخاتم كناية عن بكارتها ، وقوله بحقه : أي بنكاح لا بزنا.

(٦٢) صحيح البخاري (٥٩٧٤)، صحيح مسلم باب قصة أصحاب الغار والتوصل بصالح الأعمال (٢٧٤٣) واللفظ له.

المبحث الثالث

الآثار وأقوال العلماء الواردة في المراقبة

قال سفيان الثوري رحمه الله:"عليك بالمراقبة ممن لا يخفى عليه خافية، وعليك بالرجاء ممن يملك الوفاء"(٦٣).

وقال رجل للجنيد: بم أستعين على غض البصر؟ فقال:"بعلمك أن نظر الله إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه"(٦٤).

قال الحسن:"رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى وإن كان لغيره تأخر"(٦٥).

وقيل:"من راقب الله في خاطره عصمه في حركات جوارحه"(٦٦).

وكان الأمام الشافعي رحمه الله يردد ويقول:

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا   تقل خلوت ولكن قل علي رقيب
ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما تخفيه عنه يغيب
غفلنا العمر والله حتى تداركت   علينا ذنوب بعدهن ذنوب
فا ليت إن الله يغفر ما مضى   ويأذن في توباتنا فنتوب (٦٧)

وقال أبو محمد الأندلسي:

إذا ما خلوت بريبة في ظلمة   والنفس داعية إلى العصيان
فاستحي من نظر الإله وقل لها   إن الذي خلق الظلام يراني(٦٨)

"فينبغي للإنسان أن يراقب نفسه قبل العمل وفي العمل، هل حَرَّكَه عليه هوى النفس؟ أو المحرك له هو عبادة الله تعالى؟ فإن كان لله أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص"(٦٩).

وذلك لكي يجدد النية وتكون خالصة لله تعالى.

فالمراقبة في أثناء العمل: هي الاستمرار على الإخلاص لله تعالى، وإتقان العمل، وفق منهج القرآن والسنة.

"فهذه مراقبة العبد في طاعة الله، وهو أن يكون: مخلصا فيها.

ومراقبته في المعصية تكون: بالتوبة والندم والإقلاع.

ومراقبته في المباح تكون: بمراعاة الأدب والشكر على النعم.

فإن العبد لا يخلو من نعمة لا بد لها من الشكر عليها، ولا يخلو من بلية لا بد من الصبر عليها وكل ذلك من المراقبة"(٧٠).

---

(٦٣) إحياء علوم الدين(٣٩٧/٤).

(٦٤)إحياء علوم الدين(٣٩٧/٤).

(٦٥) إغاثة اللهفان(٣٩٢).

(٦٦)إحياء علوم الدين(٣٩٦/٤).

(٦٧) رواها البيهقي في شعب الإيمان (٤٦١/٥)، وذكر أن الإمام الشافعي رحمه الله كان يرددها ، وأبو نعيم في الحلية (٢٢٠/٩) وذكر أن الإمام أحمد بن حنبل رددها.

(٦٨) ذكر هذا البيت القحطاني في نونيته.

(٦٩) منهاج القاصدين (٣٧٣).

إن العبد يجب أن:"يراقب الله وهو يفكر ويحس، فالله يعلم السر وما أخفى، ويراقب الله فينظف مشاعره أولاً بأول، ولا يحسد ولا يحقد، ولا يكره للناس الخير، ولا يشتهى الشهوات الباطلة والمتاع الدنس، وحين توجد في القلب هذه الحساسية المرهفة تجاه الله تستقيم النفس ويستقيم المجتمع، ويعيش المجتمع نظيفاً من الجريمة، نظيفاً من الدنس، نظيفاً من الأحقاد، لأنه لا يتعامل في الحقيقة مع بعضه البعض وإنما يتعامل أولاً مع الله تعالى"(٧١).

المبحث الرابع

فوائد المراقبة

١ - "الفوز بالجنة والنجاة من النار.

٢ - الأمن من الفزع الأكبر يوم القيامة.

٣ - دليل على كمال الإيمان وحسن الإسلام.

٤ - تثمر محبة الله تعالى ورضاه.

٥ - دليل على حسن الخاتمة.

٦ - مظهر من مظاهر صلاح العبد واستقامته"(٧٢).

فيا لها من وصية عظيمة الشأن! وهي أن يستشعر الإنسان دوما جلالة الله وقدرته وعلمه بكل شيء، لأن الإنسان عندما يستشعر ذلك يزداد خوفه من الله، واستحياؤه من الله، فلا يجده حيث نهاه، ولا يفقده حيث أمره، وبذلك تأتي تقوى الله تعالى، التي هي من ثمار استشعار رقابة الله سبحانه.

وباختصار: فإن المراقبة هي من أعلى مراتب الدين، وهي داخلة تحت مرتبة الإحسان، وهي:"أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"(٧٣)(٧٤).

---

(٧٠) منهاج القاصدين (٣٧٣) .

(٧١) منهج التربية الإسلامية (١/ ٦٨) .

(٧٢) نضرة النعيم (٣٣٧٢/٨).

(٧٣) كما ورد في الحديث عن عمر بن الخطاب ﷺ (تقدم تخريجه).

(٧٤) للاستزادة عن المراقبة أنظر: مختصر منهاج القاصدين(٣٧٤-٣٨٠)، سلسلة أعمال القلوب للشيخ محمد المنجد(٢٥٧-٢٨٠) ، باب المراقبة من رياض الصالحين ، نضرة النعيم (٨/٣٣٦٧-٣٣٧٢).

الفصل الخامس

الوصية الخامسة: الوصية بإقامة الصلاة

قال تعالى عن لقمان ووصيته لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

أمرٌ بإقامة الصلاة بكل ما تشمله من أركان وواجبات، **وإقامتها:** في وقتها، في جماعة المسجد، والسعي إليها بأدب، وتسوية الصفوف، والخشوع."إقامتها: بحدودها وفروضها وأوقاتها"(٧٥).

ولعظيم وصية لقمان لابنه بالصلاة كان واجبا أن نوضح بعض الأسباب التي جعلت لقمان يوصي ابنه بالصلاة.

المبحث الأول

فضل إقامة الصلاة وأهميتها

دلت الأدلة من القرآن والسنة على فضل الصلاة وأهميتها:

١ - إن الصلاة هي أحد أركان الإسلام العملية. قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان)(٧٦).

٢ - وهي من السمات التي تتسم بها هذه الأمة من حيث الاهتمام، وجعلها الشارع مدار قبول باقي الأعمال الأخرى، وهي كما قال رسول الله ﷺ: (أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته، فإن صلحت فقد أفلح وأنجح، وإن فسدت فقد خاب وخسر)(٧٧).

٣ - أمر الله بالمحافظة عليها في الحضر والسفر، والأمن والخوف، والصحة والمرض، وفي كل حال. قال تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾ ﴾[سورة البقرة ٢٣٩].

٤ - الصلاة أعظم سبب في تقويم حياة الناس وسلوكهم ومعاشهم، وتقويم ما يقعون فيه من انحراف كما قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [سورة العنكبوت ٤٥]، ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾ ﴾[سورة طه١٣٢].

٥ - بالصلاة يمحو الله الخطايا: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمس مرات، هل يبقى من درنه شيء؟ قالوا: لا يبقى من درنه شيء، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا)(٧٨).

---

(٧٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٨) .

(٧٦) صحيح البخاري كتب الإيمان باب قول النبي ﷺ : (بني الإسلام على خمس)(٨) . صحيح مسلم كتاب الإيمان باب أركان الإسلام ودعائمه العظام (١٦) .

(٧٧) سنن أبي داود كتاب الصلاة باب قول النبي ﷺ (كل صلاة لا يتمها صاحبها تتم من تطوعه) ح(٨٦٤) ، سنن ابن ماجة كتاب إقامة الصلاة باب أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة ح (١٤٢٥) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢٠٢٠).

٦ - الصلاة دليل على صدق الإيمان. قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ (١) ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ (٢) ﴾ [سورة المؤمنون ١-٢]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) ﴾ [سورة الأنفال ٣-٤].

٧ - في الصلاة إعانة على مقاومة الجزع والهلع عند مس الضر، والمنع عند الخير، والتغلب على جوانب الضعف الإنساني. قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ (٢٢) ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ (٢٣) ﴾[سورة المعارج ١٩-٢٣].

٨ - رتب الله الأجور الكثير لكل عبد يهتم بالصلاة:

فرتب الأجر على **إسباغ الوضوء**، فقال ﷺ (من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره)(٧٩).

والصلاة في المسجد، قال رسول الله ﷺ: (صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة)(٨٠).

والمشي إلي الصلاة، قال ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: إسباغ الوضوء على المكاره وكثرة الخُطَى إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط فذلكم الرباط)(٨١).

والتبكير إلى الصلاة، والصف الأول، قال ﷺ: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه)(٨٢).

والسنن الرواتب، قال ﷺ: (ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعا غير الفريضة إلا بنى الله له بيت في الجنة)(٨٣). وغيرها من الأجور.

٩ - جعل الله تعالى الأجر الكبير على بعض الصلوات؛ لما فيها من المشقة، يختبر الله بها عباده؛ كصلاتي العصر والفجر، وصلاة العشاء، فعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من صلى البردين دخل الجنة)(٨٤) وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال النبي ﷺ: (ليس صلاة أثقل على المنافقين من الفجر والعشاء، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما؛ ولو حبوا)(٨٥).

---

(٧٨) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨) ، صحيح مسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا وترفع به الدرجات (٦٦٧) .

(٧٩) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب خروج الخطايا مع ماء الوضوء (٢٤٥).

(٨٠) صحيح البخاري كتاب الأذان باب فضل صلاة الجماعة (٦٤٥). صحيح مسلم كتاب المساجد باب فضل صلاة الجماعة وبيان التشديد في التخلف عنها (٦٥٠) .

(٨١) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب إسباغ الوضوء على المكاره (٢٥١).

(٨٢) صحيح البخاري كتاب الأذان باب فضل التهجير إلى الظهر(٦٥٣). صحيح مسلم كتاب الصلاة باب تسوية الصفوف وإقامتها وفضل الأول فالأول منها ، والازدحام على الصف (٤٣٧) .

(٨٣) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب فضل السنن الرواتب قبل الفرائض وبعدهن ، وبيان عددهن (٧٢٨) .

(٨٤) صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة باب فضل صلاة الفجر (٥٤٧) . صحيح مسلم كتاب المساجد باب فضل صلاتي الصبح والعصر والمحافظة عليهما (٦٣٥) .

(٨٥) صحيح البخاري كتاب الجماعة والإمامة باب فضل العشاء في جماعة (٦٢٦)و(٦١٨و٦٢٤).

١٠ - ترك الصلاة من الأمور العظيمة في مخالفة أمر الله، قال تعالى عن الكفار واعترافهم يوم القيامة: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾[سورة المدثر ٤٢]، وقال ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر)(٨٦).

المبحث الثاني

أقسام الناس في الصلاة

والناس في الصلاة على مراتب خمسة(٨٧):

١ - مصلٍ مفرط ظالم لنفسه: وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها وخشوعها، فهذا تسقط عنه الفريضة، ويأثم لتفريطه.

٢ - مصلٍ يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة، فذهب مع الوساوس والأفكار فهو مضيع للخشوع، فهذا له من صلاته ما عقل منها.

٣ - مصلٍ يحافظ على حدودها وأركانها، ويجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاةٍ وجهادٍ، فهذا له أجران: أجر المجاهدة، وأجر الصلاة.

٤ - مصلٍ إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها، لئلا يضيع شيئٌ منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي، وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة، وعبودية ربه تبارك وتعالى فيها، فهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾، وكذلك قول الرسول ﷺ: (ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب، ما لم يأت كبيرة، وذلك الدهر كله)(٨٨).

٥ - مصلٍ إذا قام إلى الصلاة؛ قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه عز وجل، ناظراً بقبله إليه، مراقباً له، ممتلئاً من محبته وعظمته، كأنه يراه ويشاهده، وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطرات، وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه عز وجل قرير العين به.

وهذه المرتبة قال عنها رسول الله: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)(٨٩)، وقال لبلال: (أرحنا بالصلاة يا بلال)(٩٠).

---

(٨٦) سنن الترمذي كتاب الإيمان باب ترك الصلاة (٢٦٢٣) وقال الإمام الترمذي حديث حسن صحيح .وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٢١١٣) ، وصحيح سنن ابن ماجة (١٠٧٩).

(٨٧) الوابل الصيب (٣٨).

(٨٨) صحيح مسلم (٢٢٨).

(٨٩) سنن النسائي كتاب عشرة النساء باب حب النساء (٣٩٤٠).مسند أحمد (١٢٨/٣ح ١٢٣٥١) . وصححه الحاكم على شرط مسلم (١٧٤/٢ح٢٦٧٦) . سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤٢٤/٤ح١٨٠٩).

وكان علي بن الحسين من النماذج في ذلك فقد روي عنه أنه كان"إذا توضأ اصفر وتغير، فيقال له: مالك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!!؟"(٩١).

قال ابن القيم بعد ذكره تلك المراتب:"فالقسم الأول معاقب، والثاني محاسب، والثالث مكفر عنه، والرابع مثاب، والخامس مقرب من ربه؛ لأن له نصيبا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قرت عينه بقربه من ربه عز وجل في الآخرة، وقرت عينه أيضا به في الدنيا، ومن قرت عينه بالله؛ قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى؛ تقطعت نفسه على الدنيا حسرات"(٩٢).

المبحث الثالث

أمور عملية معينة على إقامة الصلاة

مما يعين على القيام بالصلاة على وجهها أمورٌ:

١ –**الاستعانة بالله تعالى على إقامة الصلاة.**

٢ –**الإخلاص لله تعالى في الصلاة.**

٣ –**الإقلاع عن الذنوب.**

يذكر السلف رحمهم الله تعالى:"أن العبد يحرم لذة الطاعة بالذنب يصيبه"(٩٣).

ويقول ابن القيم رحمه الله:"وإن تألمت النفس بمفارقة المحبوب...فليوازن العبد بين لذة الذنب ولذة الطاعة التي تحول بينه وبين مراده وبين فوت مراده وفوت ثناء الله تعالى وملائكته عليه وفوت حسن جزائه وجزئل ثوابه وبين فرحة إدراكه وفرحة تركه لله تعالى عاجلا وفرحة ما يثنيه عليه في دنياه وآخرته والله المستعان"(٩٤).

وقال:"ومن آثار الذنوب حرمان الطاعة، فلو لم يكن للذنب عقوبة إلا أن يَصُدَّ عن طاعةٍ تكون بدله وتقطع طريق أخرى، فينقطع عليه بالذنب ثالثة، ثم رابعة، وهلم جرًّا، فينقطع عليه بالذنب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها، وهذا كالرجل: أكل أكلة أوجبت له مرضة طويلة منعته من عدة أكلات أطيب منها. والله المستعان"(٩٥).

وقال:"الذنوب تضعف سير القلوب إلى الله والدار الآخرة، أو تعوقه أو توقفه أو تقطعه عن السير، فلا تدعه يخطوا إلى الله خطوة، وهذا إن لم ترده عن وجهته إلى الوراء، فالذنب يحجب الواصل، ويقطع السائر، وينكس

---

(٩٠) سنن أبي داود كتاب الأدب باب صلاة العتمة (٤٩٨٥). مسند أحمد(٥/٣٦٤). وصححه الألباني في صحيح الجامع (٧٨٩٢).

(٩١) مختصر منهاج القاصدين(٢٧٣).

(٩٢) الوابل الصيب (٣٨).

(٩٣) لم أصل لقائل هذه المقولة، ولكن العلماء يتناقلوها، وانظر الجواب الكافي ١/ ٣٤ وفيض القدير١/١١٩ح١٣٣ وفتاوى ابن إبراهيم ١٣/١٨٥ والدرر السنية ٢٠/ ٤٥٠ وفتاوى ابن باز ٦/٢٦٦و٤٣٩و٢٣/٩٨ والموسوعة الفقهية١٤٢٠٧، وانظر ما قاله ابن القيم في الجواب الكافي (١/٥٤-١٠٧)، وابن الجوزي في صيد الخاطر ص٣٩٤ والله أعلم.

(٩٤) التبيان في أقسام القرآن (٢٦٣).

(٩٥) الداء والدواء (١٤٣).

الطالب، والقلب إنما يسير إلى الله بقوته، فإذا مرض بالذنوب ضعفت تلك القوة التي تسيره، فإن زالت بالكلية انقطع عن الله انقطاعاً يبعد تداركه"(٩٦).

وقال وهب بن الورد وقد سئل:"أيجد لذة الطاعة من يعصي؟ فقال: و لا من هَمَّ"(٩٧).

٤ -المحافظة على الصلاة في وقتها:

قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ١٠٣ ﴾[سورةالنساء ١٠٣]

٥ -الاستعداد النفسي للصلاة:

وذلك بانتظار الصلاة بعد الصلاة كما قال عليه السلام: (ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: (إسباغ الوضوء على المكاره، وكثرة الخطى إلى المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم الرباط)(٩٨).

٦ -الترديد مع الأذان:

كما ورد عن النبي ﷺ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا سمعتم النداء فقولوا كما يقول المؤذن)(٩٩).

٧ -الذكر بعد الأذان:

ثم يقول الدعاء الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عنه حيث قال: قال رسول الله ﷺ: (من قال حين يسمع النداء:اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه اللهم المقام المحمود الذي وعدته، حلت له شفاعتي يوم القيامة)(١٠٠).

٨ -إسباغ الوضوء على المكاره:

والوضوء ليس طهارة للبدن فحسب ؛ولكنه طهارة للروح أيضا من المعاصي والذنوب ؛ولذلك قال ﷺ: (من توضأ فأحسن الوضوء، خرجت خطاياه من جسده حتى تخرج من تحت أظفاره)(١٠١).

٩ -الذكر بعد الوضوء:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (ما منكم من أحد يتوضأ فيسبغ الوضوء ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شرك له وأشهد أن محمد عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء)(١٠٢)، وزاد الترمذي (اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين)(١٠٣).

---

(٩٦) الداء والدواء (١٨٩).

(٩٧) صيد الخاطر(٥٠)

(٩٨) تقدم تخريجه.

(٩٩) صحيح البخاري كتاب الأذان باب ما يقول إذا سمع المنادي (٦١١). صحيح مسلم كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن (٣٨٣) .

(١٠٠) صحيح البخاري كتاب الأذان باب الدعاء عند الأذان (٦١٤) .

(١٠١) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب وجوب استيعاب جميع أجزاء محل الطهارة (٢٤٥).

(١٠٢) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب الذكر المستحب عقب الوضوء (٢٣٤).

(١٠٣) سنن الترمذي كتاب الطهارة باب فيما يقال بعد الوضوء (٥٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (٥٥) ، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٧٠).

١٠ لبس ثياب حسنة نظيفة:

قال تعالى:﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾[سورة الأعراف ٣١]. قال ابن رجب رحمه الله:"واعلم ؛أن الصلاة في الثوب الحسن غير مكروه، إلا أن يخشى منه الإلتهاء عن الصلاة أو حدوث الكبر، وقد كان النبي - ﷺ - أحياناً يلبس حللاً من حلل اليمن، وبروداً حسنة، و لم ينقل عنه أنه كان يتجنب الصلاة فيها، وإنما ترك هذه الخميصة لما وقع له من تلك النظرة إلى علمها"(١٠٤).وخرج أبو داود في مراسيله من حديث عبيدالله بن عتبة رضي الله عنه قال: كان رسول الله – ﷺ -إذا قام إلى الصلاة – مما تعجبه الثياب النقية الريح الطيبة(١٠٥).

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: (الله أحق أن يتزين له)(١٠٦)، وقد كان لتميم الداري –رضي الله عنه- حُلَّةً اشتراها بألف درهم، يقوم بها الليل(١٠٧).

١١ -الذهاب إلى المسجد ماشياً:

قال ﷺ: (ألا أدلكم على ما يمحوا الله به الخطايا ويرفع الله به الدرجات؟)... (وكثرة الخطى إلى المساجد)، وقال ﷺ: (من تطهر في بيته، ثم مضى إلى بيت من بيوت الله، ليقضي فريضة من فرائض الله، كانت خطواته إحداها تحط خطيئة، والأخرى ترفع درجة)(١٠٨).

١٢ -دخول المسجد بالرجل اليمنى، ودعاء دخول المسجد:

ومنه الوارد:(بسم الله، والصلاة والسلام على رسول الله، اللهم افتح لي أبواب رحمتك)(١٠٩).

"وكان ابن عمر يبدأ برجله اليمنى فإذا خرج بدأ برجله اليسرى"(١١٠).

١٣ -الصلاة في الصف الأول:

لقوله ﷺ: (لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا عليه)(١١١).

١٤ -سنة رفع اليدين في مواضع:

فإذا دخل الإنسان في صلاته وقال الله أكبر ورفع يديه حذو منكبيه، استشعر أنه يرمي هذه الدنيا خلف ظهره، وهو يقول الله أكبر من المال والأولاد والزوجة والدنيا كلها، والله أكبر من كل شيء.

فعن سالم بن عبد الله عن أبيه رضي الله عنهم "أن رسول الله ﷺ كان يرفع يديه حذو منكبيه إذا افتتح الصلاة وإذا كبر للركوع وإذا رفع رأسه من الركوع رفعهما كذلك أيضا وقال: سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد. وكان لا يفعل ذلك في السجود"(١١٢).

---

(١٠٤) شرح ابن رجب على البخاري(٣/٦٣) كتاب الصلاة باب وجوب الصلاة في الثياب.

(١٠٥) مراسيل أبي داود كتاب من الصلاة باب ما جاء في الثياب (٢٨).

(١٠٦) أخرجه عبدالرزاق في مصنفه (١٣٩١) والطبراني في الكبير (٤٥٠) قال الهيثمي في مجمع الزوائد(٢/٥١):رواه الطبراني في الكبير وإسناده حسن،وصححه الألباني مرفوعاً في الصحيحة(٣/ ٣٥٦ /١٣٦٩).

(١٠٧) أخرجه أحمد في الزهد (١١١٧) ومختصر قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي باب الاغتسال لقيام الليل والتطيب ولبس الثياب الحسنة ح(١٠٨).

(١٠٨) صحيح مسلم كتاب المساجد باب المشي إلى الصلاة تمحى به الذنوب وترفع به الدرجات (٦٦٦) .

(١٠٩) صحيح سنن ابن ماجة كتاب المساجد باب الدعاء عند دخول المسجد (ح٧٧٣).

(١١٠) صحيح البخاري كتاب المساجد باب التيمن في دخول المسجد وغيره معلقاً .

(١١١) تقدم تخريجه.

فيقف المصلى وهو يستشعر أنه واقف أمام الله تعالى، واضعا يده اليمنى على اليسرى تأدباً معه سبحانه، عينه على موضع سجوده، إظهارا للخشية، والحياء من الله أن يرفع رأسه والله تعالى ينظر إليه(١١٣).

ثم يستفتح لقائه مع الله سبحانه وتعالى، ثم يقرأ الفاتحة ويستشعر أن الله يناجيه، فعن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل، فإذا قال العبد: الحمد لله رب العالمين. قال الله تعالى: حمدني عبدي. وإذا قال: الرحمن الرحيم. قال الله تعالى: أثنى علي عبدي. وإذا قال: مالك يوم الدين. قال: مجدني عبدي. وقال مرة: فوض إلي عبدي. فإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين. قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل. فإذا قال: اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت المغضوب عليهم ولا الضالين. قال: هذا لعبدي، ولعبدي ما سأل)(١١٤).

ثم يرفع يديه مكبراً للركوع بين يدي الله لإظهار الذل والمسكنة لله تعالى، ثم يعظمه بما أمر، ثم يرفع من ركوعه رافعاً يديه منادياً بالسمع والطاعة والحمد لمولاه، ثم يأتي مظهرٌ أشد في إظهار الذلة لله وهو السجود ويكون مرتين تأكيداً لكمال للذل والعبودية لله تعالى.

وهكذا كل عمل من أعمال الصلاة على المصلى أن يستشعره ولا يجعله حركات جوفاء ليس لها أي معني عنده وهو يصلي.

وكذلك أذكار الصلاة كلها(١١٥)، من التكبير إلى التسليم، على المصلى أن يستشعر هذه الأدعية، ويربطها بالذل لله، والفقر والاحتياج إليه، وإلى مغفرته وعفوه ورحمته سبحانه وتعالى(١١٦).

وإذا قام العبد المصلى بهذا، وجاهد نفسه على القيام بكل أركان الصلاة وواجباتها وسننها وخشوعها؛ أحس بعد ذلك بقول الرسول ﷺ لبلال: (أرحنا بالصلاة يا بلال) (١١٧) وبقوله ﷺ (وجعلت قرة عيني في الصلاة)(١١٨).

وبإقامة الصلاة أيضا يصلح سلوك العبد وعمله، قال تعالى:﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [سورة العنكبوت ٤٥].وفي الحديث (إذا صلحت صلح سائر العمل وإذا فسدة فسد سائر العمل)(١١٩).

---

(١١٢) صحيح البخاري كتاب صفة الصلاة باب رفع اليدين في التكبيرة ح(٧٠٢و٧٠٣و٧٠٥و٧٠٦) . ومسلم كتاب الصلاة باب استحباب رفع اليدين حذو المنكبين . . ح(٣٩٠).

(١١٣) انظر كتاب صفة صلاة النبي ﷺ للشيخ الألباني (٨٩)، فقد ذكر عدة روايات في ذلك منها : (كان ﷺ إذا صلى طأطأ رأسه ورمى ببصره نحو الأرض) صحيح ابن خزيمة والحاكم وصححه، و(لما دخل الكعبة ما خلف بصره موضع سجوده حتى خرج منها) البيهقي والحاكم وصححه.وقال ﷺ : (لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي)أبو داود وأحمد بسند صحيح ، و (كان ينهى عن رفع البصر إلى السماء) البخاري وأبو داود.

(١١٤) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة (٣٩٥).

(١١٥) يمكن الرجوع إلى أذكار الصلاة كاملة من كتب السنة والفقه لأن المجال لا يتسع لذكرها .

(١١٦) أشار الإمام ابن قدامة في مختصر منهاج القاصدين إلى هذه الأمور المعينة على الصلاة إجمالاً(٣١-٣٥).

(١١٧) تقدم تخريجه .

(١١٨) تقدم تخرجه .

(١١٩) تقدم تخريجه .

المبحث الرابع

المثل التطبيقي من حياة النبي ﷺ في الخشوع في الصلاة

عن علي بن أبي طالب ﷺ أن رسول الله ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك أنا بك وإليك تباركت وتعاليت أستغفرك وأتوب إليك وإذا ركع قال اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت خشع لك سمعي وبصري ومخي وعظمي وعصبي).

وإذا رفع قال: (اللهم ربنا لك الحمد ملء السماوات وملء الأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد).

وإذا سجد قال: (اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره تبارك الله أحسن الخالقين).

ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم: (اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أسرفت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، لا إله إلا أنت) (١٢٠).

وسئل ابن عباس ﷺ عن استسقاء رسول الله ﷺ فقال: (إن رسول الله ﷺ خرج متبذلاً(١٢١) متواضعا متضرعا حتى أتى المصلى فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيد)(١٢٢).

عن مطرف عن أبيه قال: (رأيت رسول الله ﷺ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز الرحى من البكاء ﷺ) (١٢٣).

---

(١٢٠) صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه (٧٧١).

(١٢١) التبذل : ترك التزين والتهيؤ بالهيئة الحسنة الجميلة وذلك على جهة التواضع .

(١٢٢) جامع الترمذي (٥٥٨) واللفظ له ، وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجة (١٢٦٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن ابن ماجة (١٠٤٦).

(١٢٣) سنن أبي داوود (٩٠٤) وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٧٩٩) .

الفصل السادس

الوصية السادسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تمهيد:

قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾.

بعد أن وصى لقمان ابنه بالصلاة تكميلا لإيمانه، أمره أن يقوم بالسعي على تكميل إيمانه وإيمان غيره، بالأمر بالمعرف والنهي عن المنكر في كل شيء، سواء الأمر بالتوحيد، أو الأمر بمراقبة الله تعالى، أو الأمر بالصلاة، أو الأمر بالصفات التي – سيأتي بيانها- فيها كمال لشخصية المسلم وقبل ذلك كمال لإيمانه. والنهي عن كل ما ينافي ويبعد عن الإيمان بالله تعالى.

"والأمر المعروف والنهي عن المنكر شعار الجماعة الناجية، وإذا فقد من أمة من الأمم فقد منها صفات الخير، وهو واجب على كل واحد لكل أحدٍ.

وهو أثر من آثار الإيمان، وأثر من آثار حب الفضيلة، وأساس من أسس صلاح المجتمع، وهو يوقظ الشعور وينبه الضمير، ويخيف المقدم على المنكر، وإذا تضامن الناس في ذلك كما هو الواجب شرعاً ووجد تضامنٌ من الناس على الفضيلة – وهي فعل المعروف- فلا تضيع الفضيلة بينهم، ووجد تضامنٌ على استنكار الرذيلة فلا توجد بينهم"(١٢٤)، فإن الفضيلة تنموا وترتقي بالإنسان عن الأنانية والحيوانية.

ولبيان هذه الوصية سيكون الحديث في المباحث التالية:

المبحث الأول

أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

تبرز أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة أمور:

١ -قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله تعالى عندما امتدح المؤمنين فقال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [سورة آل عمران ١١٠]، فهذا يدل على أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ لا يمكن أن ينتشر الإيمان بالله إلا عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ -إرسال الرسل وإنزال الكتب من أجل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سورة الشورى ١٣].

---

(١٢٤) لقمان الحكيم وحكمه (ص ١٦٤) .

٣ -أن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحصل به النجاة من عذاب الدنيا. قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة هود ١١٧]، ولم يقل الله وأهلها صالحون!! لأن الذي يعمل على إصلاح الناس هو الذي يحي الأمة ويعمل على نجاها، أما الصالح فلنفسه فقط، فهو لا يعمل لنجاة نفسه ولا لنجاة أمته ومجتمعه فيستحق الهلاك مع الهالكين.

وقد وضح الله هذا المعنى أكثر فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾[سورة الأعراف ١٦٥]، فالناجون هنا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

٤ -أننا مأمورون به شرعا على قدر الاستطاعة. قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [سورة آل عمران ١٠٤]. وعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)(١٢٥) فإذا قوي الإيمان ازداد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٥ -الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من صفات هذه الأمة التي امتدحها الله بها قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾.[سورة آل عمران ١١٠].

٦ -نبه الله سبحانه أن بني إسرائيل لعنوا بسبب عدم أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [سورة المائدة ٧٨].

٧ -الأجر الكبير على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فعن أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من دل على خير فله مثل أجر فاعله)(١٢٦)، وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: (من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيء، ومن دعا إلى ضلال كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيء)(١٢٧).

المبحث الثاني

حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى: ﴿ يَـٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فقد جمع الله تعالى في هذه الآية بين الوصية: بالصلاة، والوصية: بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والصلاة ركن من أركان هذا الدين، فهذا يدل عل عظم ما ذكر بعدها.

---

(١٢٥) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب كون النهي عن المنكر من الإيمان (٤٩) .

(١٢٦) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله (١٨٩٣) .

(١٢٧) صحيح مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة أو سيئة ومن دعا إلى هدى أو ضلال (٢٦٧٤) .

ويدل لذلك قول الله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨ ﴾[سورة يوسف ١٠٨]. فجمع الله تعالى بين الدعوة إليه والعمل والتبرؤ من الشرك وأهله.

وكذلك في قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣ ﴾ [سورة فصلت ٣٣]. فجمع بين الدعوة إلي الله وإعلان الإسلام(١٢٨).

يقول شيخ الإسلام عليه رحمة الله:"وقد تبين بهذا أن الدعوة إلى الله تجب على كل مسلم، ولكنها فرض على الكفاية، وإنما يجب على الرجل المعين من ذلك؛ ما يقدر عليه إذ لم يقم به غيره، كالجهاد في سبيل الله"(١٢٩).

من هنا يُعلم أن حكم الدعوة إلى الله واجب كفائي: إذا قام به البعض سقط الإثم على الباقين.

وهذا الوجوب على حسب الاستطاعة، فإن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها. فعن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكر فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)(١٣٠).

فكل على استطاعته، وكل إنسان أعلم باستطاعته. والله سبحانه وتعالى أعلم باستطاعة عباده، وسيحاسبهم عليها إذا قصروا فيها.

المبحث الثالث

تنبيهات مهمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ضوابط وحدود يجب على من سلك هذا الأمر أن يتبعها ونجملها في النقاط التالية:

١- الإخلاص لله تعالى:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [سورة البينة ٥]، فالله تعالى لايريد منا أن ندعو الناس ويكون لنا مطامع أخري غير رضوان الله كالرياء والشهرة وحب الرياسة والتعالي على الناس، أو من أجل مال أو جاه أو غيرها من مطامع الدنيا.

قال ﷺ فيما يرويه عن ربه جل وعلى (أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه)(١٣١).

٢- مطابقة القول العمل.ويطلقون عليها (القدوة):

يجب على الداعية أن يكون ما يأمر به وينهى عنه مطابقا لحاله، فلا يأمر الناس بالمعروف ولا يأتيه، وينهى الناس عن المنكر ويأتيه. قال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٤٤

---

(١٢٨) يراجع المبحث السابق لبيان أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسبب هذا الوجوب . .

(١٢٩) منهج ابن تيمية في الدعوة (١/ ٢٥) .

(١٣٠) تقدم تخريجه .

(١٣١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

﴾.[سورة البقرة ٤٤]، وقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [سورة الصف ٢-٣].

وعن النبي ﷺ أنه قال: (يؤتى بالرجل يوم القيامة فتندلق أقتابه(١٣٢)، فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار: فيقولون: يا فلان ! مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر؟ فيقول: بلى قد كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه)(١٣٣).

وليس المقصود من ذلك ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للعاصين، لأن هذا من مداخل الشيطان على الدعاة إلى الله، فإنه ما من إنسان إلا وله ذنوب، ولو أن الإنسان تقاعس حتى يتطهر من جميع الذنوب ما أمر أحد بالمعروف وما نهى أحد عن منكر. يقول سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: "لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء من المعاصي، ما أمر أحد بالمعروف ولا نهي أحد عن منكر"(١٣٤).

ولكن المقصود الابتعاد عن تلك المعاصي وإتيان الأوامر لكي يصدق الداعي مع نفسه ومع الناس، ولا يكون هذا الذي ينصح به حجة عليه يوم القيامة، وأن يكون العمل الذي يدعوا الناس إليه بمثابة الحافز الذي يحفزه على فعل الخير، وهذا ما يؤكد عليه كثير من علماء السلوك في عصرنا الحاضر(١٣٥).

٣- العلم:

قال تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ "وذلك يستلزم العلم بالمعروف ليأمر به، والعلم بالمنكر لينهى عنه"(١٣٦).

وقد بوب البخاري رحمه الله باباً بعنوان: "بَاب الْعِلْمُ قَبْلَ الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾[سورة محمد ١٩]فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ، وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَـٰلِمُونَ ۝٤٣ ﴾[سورة العنكبوت ٤٣]"(١٣٧).

"قال ابن المنير: أراد به أَنَّ العلم شرْط في صحَّة القَوْل والعمل، فلا يُعتبران إلاَّ به، فهو مُتَقَدِّم عليهما لأَنَّه مُصحِّح للنيَّة المصحِّحة للعمل، فنبَّه المصنِّف على ذلك حتَّى لا يَسْبِق إلى الذّهْن من قولهم: إن العلْم لا ينفع إلا بالعمل ، تَهوين أمر العلم والتَّساهُل في طلبه"(١٣٨).

ولا يقصد بذلك أن يكون الداعي إلى الله محيطاً بجميع أحكام الإسلام وإنما أن يكون عالماً بما يدعوا إليه وفيما ينكر فيه.

---

(١٣٢) أي أمعاء بطنه .

(١٣٣) صحيح البخاري كتاب بدأ الخلق باب صفة النار وأنها مخلوقة (٣٢٦٧) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله (٢٩٨٩).

(١٣٤) تفسر ابن كثير (١/ ٩١) .

(١٣٥) للاستزادة : انظر العادات السبع لإستيفن كفي.

(١٣٦) تيسير الكريم الرحمن (٦٤٩).

(١٣٧) هذا الباب من صحيح البخاري كتاب العلم .

(١٣٨) فتح الباري (١٩٢/١).

٤- الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن:

وغيرها من أخلاق الدعاة، وهي من أخلاق الدعاة المهمة جداً، لكي يُستقبل هذا الدين بيسر وسهولةٍ ولا يُنفّر منه، ولكي يحس المدعو أن الذي يدعوه مشفق عليه يحب له الخير، حتى لو وصل الأمر إلى المجادلة فتكون المجادلة بالحسنى.قال تعالى:﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥ ﴾[سورة النحل ١٢٥]. وقال تعالى:﴿ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا ﴾ [سورة البقرة ٨٣]، وقال تعالى:﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾ [سورة الأعراف ١٩٩].

وقال تعالى مخاطباً موسى وهارون حينما بعثهما إلى فرعون:﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ ﴾[سورة طه ٤٤]."هذه الآية فيها عبرة عظيمة وهو أن فرعون في غاية العتو الاستكبار والكفر، ومع هذا فإن الله أمرهما ألا يخاطباه إلا باللطف واللين"(١٣٩). فإن كان هذا التوجيه في جانب الكافرين، ففي جانب المسلمين سيكون بلا شك أكثر لينا ولطفا لأهم أقل حاجة للمعالجة والمجادلة.

٥- الصبر على أمر الدعوة:

قال تعالى: ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾ "علم أن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، لا بد أن يناله من الناس أذى، فأمره بالصبر"(١٤٠).

فالصبر من أهم الصفات التي ينبغي على الداعية أن يتصف بها، وذلك لأن الداعية إلى الله لا بد أن يتعرض إلى أنواع من الإيذاء والتكذيب والاستهزاء فيجب عليه أن يتحلى بسلاح الصبر ليواجه به كل العقبات التي في طريق دعوته(١٤١).

٦- عدم تتبع عورات المسلمين:

فالآمر بالمعروف والناهي عن المنكر همه إصلاح الناس وليس تتبع عوراتهم وكشفها، وإصغاء الآذان لكل متكلم ، وملاحقة الناس والتنقيب عن زلاتهم. فمع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحرص على ستر عورات الناس وحفظ أسرارهم. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ [سورة الحجرات ١٢].

وهناك حالة واحدة يجوز له أن يتجسس فيها: وهي إذا خاف وقوع المنكر وفواته(١٤٢). قال الماوردي: "... أن يكون في ترك التجسس انتهاك حرمة، يفوت استدراكها، مثل أن يخبره من يثق بصدقه أن رجلاً خلا برجل أو بامرأة ليزني بها، فيجوز له في مثل هذه الحالة أن يتجسس ويقدم على الكشف والبحث، حذراً من فوات ما لا يستدرك من انتهاك المحارم وارتكاب المحظورات"(١٤٣).

٧- مراعاة أحوال المخاطبين:

---

(١٣٩) تفسير ابن كثير (٣/ ١٣٥) .

(١٤٠) تفسير ابن كثير (٣٣٨/٦) .

(١٤١) والحديث عن الصبر سيأتي مستوفياً في الوصية السادسة .

(١٤٢) يمكن مراجعة الأدلة والتوسع في المسألة من كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للشيخ : عبد العزيز بن أحمد المسعود (٢٢٧/٢-٢٤٦).

(١٤٣) الأحكام السلطانية (٢٥٣).

وذلك من جميع الجوانب والوجوه التي يحتاجها الداعية والمدعو، من حيث المرحلة العمرية، والمستوى والثقافي، والبيئة التي يعيشون فيها.

كما ورد عن ابن مسعود أنه قال: (كان رسول الله ﷺ يتخولنا بالموعظة مخافة السآمة)(١٤٤). وهذا منهج للنبي ﷺ، حيث كان يأتيه الرجل فيسأله عن الأمر، فيجيبه بما يناسبه، ويأتيه الآخر فيجيبه بما يناسبه(١٤٥). فهذا فن في الدعوة إلى الله، فيجب على الدعاة أن يهتموا به لما فيه من مراعاة ما يحتاجه الناس من أنواع الهداية.

٨- التدرج مع المدعو:

هذا التدرج يكون في دعوته بالأهم فالمهم، كأن يدعو إنساناً لا يصلي ويغتاب، فهنا يبدأ بالصلاة أولاً، ثم يتبعها بالنهي عن الغيبة، مع العلم أنه لو صلى لانتهى عن الغيبة غالباً، لأن صلاته تنهاه عن ذلك. ويكون في التدرج بيان حكم معين، ولقد أنزلت آيات تحريم الخمر على ثلاث مراحل، وذلك مراعاة للتدرج مع المدعوين.

وهذا الأمر واضح جداً في حديث معاذ ﷺ عندما أرسله رسول الله ﷺ إلي اليمن فقال له: (إنك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله: فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا فعلوا: فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة من أموالهم وترد على فقرائهم، فإذا أطاعوا بها: فخذ منهم وتوق كرائم أموال الناس)(١٤٦).

٩- التجديد والتنويع في وسائل الدعوة:

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِي إِلَّا فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) ﴾ [سورة نوح ٥-٩].

فالداعية الجيد يحاول أن يبعد الملل عن المدعويين، باستخدام أنواع الوسائل الدعوية في الدعوة إلى الله، وذلك استثمار كل وسيلة دعوية نافعة في دعوته، ومحاولة اختيار وابتكار وسائل دعوية يستعان بها على الإنكار والأمر بالمعروف، تناسب المكان والزمان والمدعوين وقبل ذلك ليس فيها مخالفة شرعية.

١٠- الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جميعهما:

ولا يقتصر على النهي عن المنكر، أو الأمر بالمعروف فقط. لأن هناك من يظن أن الدعوة إلى الله هي النهي عن المنكر فقط، وهذا خطأ كبير في حق الدعوة، مع أن الله تعالى قدم الأمر بالمعروف على النهي عن المنكر في كل مواضع القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ وذلك تنبيها على أهمية الأمر بالمعروف، وأنه إذا أمر بالمعروف زال منكر من المنكرات، كما قال النبي ﷺ : (ما أحدث قوم بدعة إلا رفع

---

(١٤٤) صحيح البخاري كتاب الدعوات باب الموعظة ساعة بعد ساعة (٦٤١١) .صحيح مسلم كتاب الجنة والنار باب الاقتصاد في الموعظة (٢٨٢١).

(١٤٥) كما ورد ذلك عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا قال للنبي ﷺ : أوصني ؟ قال : (لا تغضب) ، فردد مراراً قال: (لا تغضب) البخاري(٦١١٦) . وقال للآخر غير ذلك ، فعن جرموزا الهجيمي قال : قلت : يا رسول الله أوصني ؟ قال :(أوصيك أن لا تكون لعانا) مسند أحمد(٥/٧٠/٢٠٦٩٧) وتعليق شعيب الأرنؤوط بأن إسناده قوي .

(١٤٦) صحيح البخاري باب لا تأخذ كرائم أموال الناس في الصدقة (١٣٨٩) واللفظ له .صحيح مسلم كتاب الإيمان باب الدعوة إلى الشهادتين وشرائه الإسلام (١٩).

مثلها من السنة ، فتمسُّكٌ بسنة خير من إحداث بدعة) (١٤٧). ومنه قول بعض السلف: "إذا أحييت سنه ماتت بدعة"(١٤٨).

١١- شمولية الدعوة إلى الله وعالميتها:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾[سورة الأنبياء ١٠٧]. وقال تعالى: ﴿ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ﴾ [سورة الأنعام ٣٨].

فالدعوة إلى الله شاملة كل نواحي الحياة فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يجب أن يدخل في كل الأمور الدينية والدنيوية سواء كانت اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو علمية أو صناعية أو زراعية ... أو غيرها من متطلبات الحياة.

وأنها لكل الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية والمادية وبيئاتهم الاجتماعية. فالدعوة ليست مخصوصة بجنس دون جنس، ولا بمجموعة دون أخرى.

ويجب أن يكون الدعاة لكل أصناف الناس، ولا يقتصروا على فئة معينة من الناس كطلبة العلم فقط، أو الملتزمين بالتدين فقط، أو العصاة فقط.

ومن شمولية الدعوة وعالميتها أن كل فرد مطالب بأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حسب استطاعته. فالدعوة إلى الله ليست مقصورة على العلماء وطلبة العلم كالفتوى والقضاء، بل على كل من يمتلك القدرة والاستطاعة على ذلك، حتى العصاة؛ فإن معصيتهم لا تسقط عنهم واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

---

(١٤٧) أخرجه احمد (٤/١٠٥)ح١٧٠١١.وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/٤٤٧ والألباني في إصلاح المساجد٤٩ ، وسكت عنه ابن حجر في الفتح ١٣/٢٥٤ والله أعلم .

(١٤٨) لم أصل إلى من قال هذه المقولة ، ولكن يعضدها ويقويها احديث وأقوال الصحابة وسائر السلف، وقد أشار إليها الأئمة وانظر اعتقاد أهل السنة للالآلكائي١/٩٠ والاعتقاد للبيهقي ٢٢٧ والباعث لأبي شامة١٣ومابعدها. والله أعلم .

الفصل السابع

الوصية السابعة: الصبر

المبحث الأول

فضل الصبر وأهميته

قال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧ ﴾

أي"واصبر على ما أصابك من الشدائد والمحن، لاسيما فيما أمرت به من إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالصبر على إقامة الصلاة: لأن إتمام الصلاة والمحافظة عليها قد يشق، ولذلك يقول الله تعالى:﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ﴾ [سورة البقرة ٤٥]، وإذا أمرت بمعروف أو نهيت عن منكر وأصابك في ذلك أذي وشدة فاصبر عليها"(١٤٩)، وذلك كما قال الله لرسوله محمد ﷺ: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف ٣٥]، فالصبر يكون على الأذى من المدعوين، ويكون على المشقة والتعب في تبين الحق لهم، والصبر على عدم الاستجابة منهم.

وأمر الصبر عظيم جداً، ولذلك قال تعالى في ختام الآية:﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾."أي: أن الأمور التي وصى بها لقمان ابنه، والصبر على أدائها، من الأمور التي يعزم عليها، ويهتم بها، ولا يوفق لها إلا أهل العزائم"(١٥٠).

ووجوه دلالة الآيات والأحاديث على فضل الصبر كثيرة فمنها:

١- أن الصابر تحصل له معية الله:

قال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦ ﴾[سورة الأنفال ٤٦] "فأمرهم بالصبر على شدائد الحرب، وأخبرهم أنه مع الصابرين في كل أمر ينبغي فيه الصبر"(١٥١).

٢- بشارة المؤمنين في الدنيا برحمه الله والفلاح في الآخرة:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧ ﴾ [سورة البقرة ١٥٧].

٣- الأجر الكثير بغير حساب:

---

(١٤٩) روح المعاني (٧/ ٨٨) جزء (٢١) .

(١٥٠) تفسير السعدي (٥٩٧) .

(١٥١) فتح القدير (٢/ ٣١٥) .

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الزمر ١٠] "ما من قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ولأن الصوم من الصبر قال تعالى في الحديث القدسي: (إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به، يدع طعامه وشهوته من أجلي)(١٥٢)"(١٥٣).

وقال ﷺ: (ليس مؤمن يصيبه نكبة شوكة ولا وجع إلا رفع الله عز وجل له بها درجة، وحط عنه بها خطيئة)(١٥٤).

٤- محبة الله للصابرين:

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [سورة آل عمران١٤٦]. أي:"وما جبنوا، ولكنهم صبروا على أمر ربهم، وطاعة نبيهم، وجهاد عدوهم"(١٥٥)،"والظاهر العموم لكل صابر على ما أصابه، من قتل في سبيل الله، أو جرح، أو بلاء، أو أذى يناله بقولٍ أو فعلٍ، أو مصيبة في نفسه، أو أهله أو ماله، أو ما يجري مجرى ذلك. وكثيراً ما تمدحت العرب بالصبر وحرصتً عليه"(١٥٦).

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن عظم الجزاء من عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط"(١٥٧).

"فالتعبير بالحب من الله للصابرين، له وقعه، وله إيحاؤه، فهو الحب الذي يأسو الجراح، ويمسح على القرح، ويعوض ويربو عن الضر والقرح والكفاح المرير!"(١٥٨).

٥- القيادة في الدنيا والدين بالصبر واليقين بالله:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة السجدة ٢٤]. أي:"لما كانوا صابرين على أوامر الله وترك نواهيه وزواجره وتصديق رسله واتباعهم فيما جاؤوهم به، كان منهم أئمة يهدون إلى الحق بأمر الله، ويدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر"(١٥٩)، فالنصر والتمكين وهداية الناس جائزة الصابرين في الدنيا.

٦- العاقبة للمتقين الصابرين:

قال تعالى:﴿ تِلۡكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهَآ إِلَيۡكَۖ مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَـٰذَاۖ فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَـٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾ ﴾" [سورة هود ٤٩]. أي:"تلك الأنباء، من أنباء ما غاب عنك أوحينا لك بها لتقف عليها،

---

(١٥٢) صحيح مسلم كتاب الصيام باب فضل الصيام (١١٥١).

(١٥٣) مختصر منهاج القاصدين (٢٦٨).

(١٥٤) مسند أحمد (٢٥٨٤٦) ، وابن حبان (٢٩١٩) من حديث عائشة ﵂ .

(١٥٥) البغوي(١١٦/٢).

(١٥٦) البحر المحيط(٧٥/٣).

(١٥٧) رواه الترمذي وقال حديث حسن ، رياض الصالحين (١٨)، والترغيب والترهيب (١٤٣/٤).

(١٥٨) في ظلال القرآن (٤٨٢/١).

(١٥٩) تفسير ابن كثير (٣٧١/٦).

كانت مجهولة عندك وعند قومك. فاصبر على مشاق الرسالة، وأذية القوم كما صبر نوح، فالعاقبة في الدنيا بالظفر، وفي الآخرة بالفوز،للمتقين عن الشرك والمعاصي"(١٦٠).

فأمر الله نبيه ﷺ بالصبر ونبهه على أن العاقبة للمتقين،والصبر من صفات هؤلاء المتقين.

٧- توجيه الله للرسول والأنبياء بالصبر:

قال تعالى:﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [سورة الأحقاف ٣٥]. هذا "توجيه يقال لنبينا محمد ﷺ، وهو الذي احتمل ما احتمل، وعانى من قومه ما عانى. وهو الذي نشأ يتيماً، وجرد من الولي والحامي، ومن كل أسباب الأرض واحداً بعد واحد، كما هو مجرد من كل سند أو ظهير. وهو الذي لقي من أقاربه من المشركين أشد مما لاقى من الأبعدين. وهو الذي خرج مرة ومرة يستنصر القبائل والأفراد فرد في كل مرة بلا نصرة"(١٦١).

"فامتثل ﷺ لأمر ربه فصبر صبراً لم يصبره نبي قبله حتى رماه المعادون له عن قوس واحدة، وقاموا جميعا بصده عن الدعوة إلى الله وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة(١٦٢).

"وبعد ذلك كله يحتاج إلى توجيه من ربه بالصبر، ألاَ إنه لطريق شاق، حتى لتحتاج نفس كنفس محمد ﷺ- في تجردها وانقطاعها للدعوة؛ وفي ثباتها وصلابتها، وفي صفائها وشفافيتها، تحتاج إلى التوجيه الرباني بالصبر، وعدم الاستعجال،... إن مشقة هذا الطريق لتحتاج إلى مواساة، وإن صعوبته لتحتاج إلى صبر"(١٦٣).

٨- توجيه الله المؤمنين وأمرهم بالصبر:

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠ ﴾ [سورة آل عمران ٢٠٠]. "أمروا أن يصبروا على دينهم الذي ارتضاه الله لهم، وهو الإسلام، فلا يدعوه لسرّاء ولا لضرّاءَ ولا لشِدَّة ولا لرِخَاء، حتى يموتوا مسلمين، وأن يصابروا الأعداء الذين يكتمون دينهم"(١٦٤).

والصبر هو زاد الطريق في هذه الدعوة. إنه طريق طويل شاق، حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء.. الصبر على أشياء كثيرة مما يصادف السالك في هذا الطريق الطويل.. لا تصوره حقيقة الكلمات. فالكلمات لا تنقل المدلول الحقيقي لهذه المعاناة. إنما يدرك هذا المدلول من عانى مشقات الطريق؛ وتذوقها انفعالات وتجارب ومرارات!

والمصابرة: وهي مفاعلة من الصبر، فلا ينفد صبر المؤمنين على طول المجاهدة. بل يظلون أصبر من أعدائهم،فهذه الدعوة تواجه الناس بمنهج حياة واقعي. منهج يتحكم في ضمائرهم، كما يتحكم في أموالهم، كما يتحكم في نظام حياتهم ومعايشهم. منهج خير عادل مستقيم فلا بد من الصبر والمصابرة"(١٦٥).

٩- النصر يكون للصابرين:

---

(١٦٠) الجامع لأحكام القرآن(٩/٤٩).

(١٦١) في ظلال القرآن (٦/٣٢٧٦).

(١٦٢) تيسير الكريم الرحمن (٧٨٤).

(١٦٣) في ظلال القرآن (٦/٣٢٧٦)باختصار.

(١٦٤) تفسير ابن كثير(٢/١٩٥).

(١٦٥) في ظلال القرآن(١/٥٤٥-٥٤٦).

قال تعالى:﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ﴾ [سورة الأنفال ٦٥]، والآيات الدالة على ذلك كثيرة، تبين أن الصبر هو سبب من أسباب النصر، ولذا فالتنبيه عليه من الأمور المهمة جداً في حياة المجاهدين، لكي لا يستسلموا لليأس، أو يستكينوا للهوان، أو يرضوا بالذل.

١٠- لا يعتبر وينتفع بآيات الله إلا الصابرون:

قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة إبراهيم ٥]، لأنه إذا صبر على التفكر بآيات الله تأثر بآيات الله، فكانت له عبرة وعظة فيما يقدم عليه من الأمور.

١١- الصبر ضياء:

قال رسول الله ﷺ: (الصبر ضياء)[١٦٦]. "والمراد أن الصبر محمود ولا يزال صاحبه مستضيئاً مهتديا مستمراً على الصواب"[١٦٧]، وذلك لأن المبتلى تحصل له ظلمة، والذي يخرجه من هذه الظلمة هو الصبر فالصبر إذاً هو الضياء. "ولكن الصبر محرق كشدة حرارة الضياء، فالضياء نور قوي فيه حرارة ونوع إحراق، فلهذا جعل الصبر ضياء"[١٦٨].

١٢- أفضل شيء يعطاه العبد في هذه الدنيا الصبر:

قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [سورة البقرة ١٥٥-١٥٧]، فـ"إنه تعالى جمع للصابرين ثلاثة أمور لم يجمعها لغيرهم، وهي: الصلاة منه عليهم، ورحمته لهم، وهدايته إياهم، وقال أحد السلف وقد عزِّي على مصيبة نالته فقال: ما لي لا أصبر وقد وعدني الله على الصبر ثلاث خصال، كل خصلة منها خير من الدنيا وما فيها"[١٦٩].

وقال رسول الله ﷺ: (ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى الله أحدا من عطاءً أوسع من الصبر)[١٧٠].

وذلك لأن الإنسان إذا رزق الصبر؛ استطاع أن يقوم بكل ما أوجبه الله عليه، وينتهي عن كل ما نهاه الله عنه، ويثبته الله على هذا إلى أن يلقى الله عز وجل.

١٣- بالصبر والشكر يحصل الخير للمؤمن وهو من صفات المؤمنين:

قال ﷺ: (عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له)[١٧١].

---

(١٦٦) صحيح مسلم كتاب الطهارة باب فضل الوضوء (٢٢٣) .

(١٦٧) شرح صحيح مسلم للنووي (١٠١/٣).

(١٦٨) قسم الحديث (٩/٢٤).

(١٦٩) عدة الصابرين (٥٨).

(١٧٠) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الاستعفاف عن المسألة (١٤٦٩).صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل التعفف والصبر (١٠٥٣).

(١٧١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب المؤمن أمره كله خير (٢٩٩٩) .

"فالصبر كتر من كنوز الخير، لا يعطيه الله عز وجل إلا لعبد كريم عنده، وكان بعض العارفين في جيبه رقعة يخرجها كل ساعة، فيطلعها وفيها﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ٤٨ ﴾[سورة الطور ٤٨]"(١٧٢)، "وحقيقة الإيمان: الصبر على المكاره"(١٧٣).

وهذا أحد السلف يوصي أبنائه فيقول: "... ومن يصبر على ما يكره يدرك ما يحب، وإذا أراد أحدكم أن يأمر الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى، وليثق بالثواب من الله، فمن يثق بالثواب من الله لا يجد مس الأذى"(١٧٤).

"والصبر خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجمل، وهو قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها"(١٧٥)، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الصابرين.

١٤- جعل الله تعالى الصبر عوناً وعدة:

قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [سورة البقرة ٤٥]، "فمن لا صبر له لا عون له"(١٧٦).

المبحث الثاني

أنواع الصبر

الصبر ثلاثة أنواع:

النوع الأول: صبر على طاعة الله:

قال تعالى:﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ﴾ [سورة الكهف ٢٨].

طاعة الله سبحانه وتعالى تحتاج إلى صبر:

١ - صبر على الإخلاص فيها.

٢ - وصبر على المجاهدة أثنائها.

٣ - وصبر على الثبات عليها.

ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه،ورجل قلبه معلق بالمساجد)(١٧٧)، فكل هؤلاء الخمسة ينطبق عليهم الصبر على طاعة الله، ولذلك كان لهم أن يكونوا تحت ظل عرش الله تعالى.

---

(١٧٢) مختصر منهاج القاصدين (٢٧٠) .

(١٧٣) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٦٩).

(١٧٤) الدر المنثور (٥/ ٣٢٠) .

(١٧٥) عدة الصابرين (١٤) .

(١٧٦) عدة الصابرين (٥٨).

(١٧٧) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

النوع الثاني: صبر عن معصية الله:

وهذا النوع يأتي في الدرجة الثانية من أنواع الصبر، لأنه فيه مشقة على النفس وفيه اختيار للنفس يمكن أن ترتكب المعصية أو لا فالاختيار لها. ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله)(١٧٨). فلصعوبة ما ابتعد عنه هذا الرجل؛ التزاماً بما نهاه الله عنه، وبخوفه من الله، استحق أن يكون تحت ظل عرش الله سبحانه وتعالى. ونحن مطالبون باجتناب المعاصي دائما ما دمنا أحياء على هذه الأرض فلذلك كان الاختبار في هذا النوع شديد.

النوع الثالث: صبر على أقدار الله:

الابتلاءات التي تصيب العبد كثيرة جدا ومنها: الأمراض ، أذي الناس ، الفقر ، فشل الأولاد، الزوجة، موت قريب أو حبيب....الخ.

والأجر الذي أعده الله للصابرين على هذه الابتلاءات أكثر،والله يريد منا الصبر عليها.

ويكفي أن الله يجازي العبد إذا صبر على هذه الابتلاءات أن يكفر الله بها عنه الخطايا، قال ﷺ: (ما يصيب العبد من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم؛ حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه)(١٧٩).

وقال ﷺ: (إذا أراد الله بعبد الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبد الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة)(١٨٠) (١٨١).

المبحث الثالث

إبتلاء الله للصالحين

قد يتساءل كثير من الناس: لماذا يبتلي الله الصالحين؟؟

هذا السؤال مهم جداً، إذا علم المسلم إجابته كان حافزاً له على الصبر، وهي مما يغفل عنه كثير من الناس، ونجملها في النقاط التالية:

١- رفعة الدرجات وتكفير السيئات:

قال تعالى:﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة الزمر ١٠].

---

(١٧٨) تقدم تخريجه.

(١٧٩) صحيح البخاري كتاب المرض باب ما جاء في كفارة المرضى . صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن أو نحو ذلك حتى الشوكة يشاكها (٢٥٧٣) .

(١٨٠) سنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٦) وقال حديث حسن صحيح. سلسلة الأحاديث الصحيحة٣/٢٢٠ رقم (١٢٢٠) ، وصحيح سنن الترمذي (١٩٥٣).

(١٨١) للاستزادة راجع مختصر منهاج القاصدين (٢٧٠)، فقد أجاد رحمه الله في تقسيم أنواع الصبر.

وقد سئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ فقال ﷺ: (الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبا، زيد في ابتلائه وإن كان في دينه رقة يبتلى على حسب دينه، حتى يتركه الله يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة)(١٨٢).

٢- التميز بين الناس:

قال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [سورة آل عمران ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿ الٓمٓ (١) أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ (٣) ﴾ [سورة العنكبوت ١-٣].

فدلت الآيات أنَّ "الله سبحانه وتعالى لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين، بحسب ما عندهم من الإيمان، كما في الحديث المتقدم عن رسول الله ﷺ: (أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء)(١٨٣)، ولهذا قال: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ أي: الذين صدقوا في دعواهم الإيمان، مِمَّنْ هو كاذب في قوله ودعواه، والله سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون. وهذا مجمع عليه عند أئمة السنة والجماعة"(١٨٤).

"إن الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف؛ وأمانة ذات أعباء؛ وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال. فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا. وهم لا يتركون لهذه الدعوى، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم. كما تفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به.

والله يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء؛ ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر؛ فيحاسب الناس إذن على ما يقع من عملهم؛ لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم. وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب، فلا يأخذوا أحداً إلا بما استعلن من أمره، وبما حققه فعله. فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه!

إن الإيمان أمانة الله في الأرض، لا يحملها إلا من هم لها أهل وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص. وإلا الذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى المتاع والإغراء"(١٨٥).

"فمن تمام حكمة الله سبحانه وتعالى أن حكمته لا تقتضي أن كل من قال إنه مؤمن وادعى لنفسه الإيمان، أن يبقوا في حالة يسلمون فيها من الفتن والمحن، ولا يعرض لهم ما يشوش عليهم إيمانهم وفروعه، فإنهم لو كان الأمر كذلك، لم يتميز الصادق من الكاذب، والمحق من المبطل، ولكن سنته وعادته في الأولين وفي هذه الأمة، أن يبتليهم بالسراء والضراء، والعسر واليسر، ..ونحو ذلك من الفتن، الشبهات والشهوات، والناس في هذا المقام

---

(١٨٢) أحمد في المسند (١/ ١٧٢) وسنن الترمذي كتاب الزهد باب ما جاء في الصبر على البلاء (٢٣٩٨) سنن ابن ماجة كتاب الفتن باب الصبر على البلاء (٤٠٢٣). وقال الألباني حسن صحيح في صحيح سنن الترمذي (١٩٥٧) ، وصحيح سنن ابن ماجة (٤٠٢٣).

(١٨٣) تقدم تخريجه.

(١٨٤) تفسير ابن كثير(٦/٢٦٣).

(١٨٥) في ظلال القرآن (٥/٢٧١٩-٢٧٢٠).مختصراً.

درجات لا يحصيها إلا اللّه، فمستقل ومستكثر، فنسأل اللّه تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وأن يثبت قلوبنا على دينه، فالابتلاء والامتحان للنفوس بمترلة الكير، يخرج خبثها وطيبها"(١٨٦).

٣- لأن المصائب تذكر بالنعم:

فالعبد الصحيح لا يحس بنعمة الصحة إلا إذا مرض، فالصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى، لقول النبي ﷺ: (اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، و فراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك)(١٨٧)، وقس على ذلك جميع ما أنعم الله به على العباد، فإنهم لا يشعرون بنعمة الله إلا إذا فقدوها، أو حصل لهم مكروه فيها.

٤- لكي يشتاق الإنسان للجنة:

فإنه لن يشتاق للجنة إذا كانت حياته كلها نعيم، وبدون ابتلاء، فالمتاع في الدنيا يصرف الناس عن التفكر في الآخرة، ولذلك قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة الجمعة ١١].

وعندما ابتلى الله سبحانه وتعالى الصحابة بقتال قريش في غزوة بدر، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: (قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض) فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يارسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: (نعم) قال بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: (ما يحملك على قولك: بخ بخ) قال: لا والله يارسول الله **إلا رجاء أن أكون من أهلها** قال: (فإنك من أهلها) فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه؛ إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتل حتى قتل(١٨٨)، نعم فالابتلاء يجعل المسلم تتوق نفسه للجنة، فيعمل طالباً - وهو في ابتلاء – الجنة، لأنه يعلم أن لا راحة إلا في الجنة.

٥- الابتلاء يكون في السراء كما هو بالضراء ليختبر إيمان أهل الإيمان:

قال تعالى:﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سورة الأنبياء ٣٥]. نبه الله تعالى على أن الابتلاء ليس في الضراء فقط. فيبتلي الله المؤمنين بالسراء لينظر الله سبحانه ماذا سيعملون في هذه السراء؟ هل سيشكرون الله عليها، ويستعينون بها على طاعة الله، أم لا؟

فهذا يوسف عليه السلام يبتليه الله بالسراء بعد الضراء، فما كان منه إلا أن قال: ﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [سورة يوسف ١٠١]، فلم تأخذه عزة السلطة بأن ينسى الله، بل اعترف بالفضل أولاً وأخيراً لله تعالى.

وكذلك سليمان عليه السلام قال: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النمل ١٩].

---

(١٨٦) تيسير الكريم الرحمن(٦٢٦)، مختصراً.

(١٨٧) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/٣٤١/٧٨٤٦) ، والبيهقي في الشعب(٧/٢٦٣/١٠٢٤٨) ، وأبو نعيم في الحلية (٤/١٤٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٠٧٧).

(١٨٨) صحيح مسلم باب ثبوت الجنة للشهيد (١٩٠١).

المبحث الرابع

نماذج الصابرين

نذكر لكل نوع من الأنواع السابقة نموذجاً، نستفيد منه، ويكون لنا مثالاً عملياً في حياتنا:

النموذج الأول: في الصبر على طاعة الله تعالى:

قال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [سورة الصافات ١٠٢-١٠٦].

"يا لله، ويا لروعة التسليم والطاعة لله سبحانه وتعالى. هذا هو إبراهيم الشيخ المقطوع من الأهل والأقارب، والمهاجر، يرزق في كِبره بغلام طالما تَطلع إليه يأنس به ويرافقه في الحياة.. يُؤمر بذبح ابنه فماذا؟ إنه لا يتردد عن الطاعة مع أن الأمر كان عبارة عن إشارة وليست وحياً مباشراً، ولكنه التسليم لأمر الله، ولكنه لا يُسلِّم في جزع ولا يطيع في اضطراب وذلك يتضح في كلماته لابنه: ﴿ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ ﴾.فماذا يكون من الغلام الذي يعرض عليه الذبح تصديقا لرؤيا والده؟

إنه يتلقى الأمر بالطاعة وليس ذلك فحسب ولكن في رضى ويقين بالله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ إنه ارتقى إلى الأفق الذي ارتقى إليه أبوه من قبل"(١٨٩).

هذان نموذجان في وقت واحد نموذج الوالد وولده يتلقيان الأمر بكل طاعة وتسليم لله تعالى. وهذا من أعظم الأمثلة في الصبر على طاعة الله تعالى. فهل نصل نحن إلى هذه الدرجة أن نضحي بأنفسنا وأهلنا في سبيل الله.

النموذج الثاني: في الصبر عن معصية الله تعالى:

من أجمل المواقف وأشدها تأثيرا في النفس، موقف نبي الله يوسف عليه السلام في محنته في بيت العزيز، هذا الموقف الذي صمد فيه نبي الله يوسف أشد الصمود، وصبر فيه أشد الصبر، قال تعالى:﴿ وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[سورة يوسف ٢٣].

شاب في عنفوان الشباب، كامل الصحة، أعزب، غريب عن الديار، مغلق عليه الباب، تراوده امرأة جميلة، ذات منصب، هددته إن لم يفعل، ومع ذلك يقول: ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ ﴾ يا له من صبر، ويا لها من خشية لله تعالى!! جعلته يصبر عن هذه المعصية، بعد توفر كل السبل، ولكن يعلو الإيمان قلبه ويتذكر مراقبة الله تعالى له فيصبر عن هذه الدعوة إلى ما حرم الله تعالى، بل ويختار السجن على ما تريده منه: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ

---

(١٨٩) في ظلال القرآن (٥/ ٢٩٩٤) .

أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ ﴾[سورة يوسف ٣٣].وهذا كما قال رسول الله ﷺ عن السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال إني أخاف الله رب العالمين)(١٩٠).

النموذج الثالث: الصبر على البلاء:

إذ نذكر الصبر على البلاء، يتوارد إلى الذهن قصة أيوب عليه السلام: قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ ﴾ [سورة الأنبياء ٨٤].

فهذا أيوب عليه السلام عاش ثمانين سنة غنياً، موفور الصحة، عنده من الأولاد الكثير ويحبه الناس جميعا. ثم يشاء الله أن يموت أولاده كلهم ويصاب هو بالجذام حتى إن لحم جسمه تساقط فلم يبق عنده إلا لسانه وقلبه، وقد ذهب عنه الناس.وكانت امرأته تخدم الناس بعد أن صرفت كل ماله في علاجه. وذات مرة قالت له زوجته: ألا تدعوا الله أن يشفيك؟ فقال لها أنعم على ثمانين عاماً!! فهل قليل لله أن أصبر له سبعين سنة؟(١٩١)!!.قال تعالى:﴿ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤ ﴾ [سورة ص ٤٤].

"وأيوب هنا في دعائه لا يزيد على وصف حاله: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾، ثم لا يدعو بتغير حاله، ولا يقترح شيئاً على ربه. ففي هذه اللحظة التي توجه فيها أيوب إلى ربه كانت الاستجابة: ﴿ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤ ﴾.رفع الله عنه الضر في بدنه فإذا هو معافى صحيح، ورفع عنه الضر في ولده فعوض عمن فقد منهم رحمة من الله تعالى"(١٩٢).

وقوله تعالى:﴿ وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ﴾: إشارة إلى أن العابدين معرضون للبلاء لكي يَعْلَم منهم صدق التوجه إليه ثم بعد ذلك هو الرحيم بهم، فيأتي بعد البلاء بالفرج.

فأيوب نموذج للعبد الصابر الذي لا يضيق صدره بالبلاء، فإنه مثال للبشرية كلها وموعظة للمؤمنين كلهم وأنه لا بد من الابتلاء، ولا بد من الصبر ليحصل الخير من ذلك البلاء.

---

(١٩٠) صحيح البخاري كتاب الزكاة باب الصدقة باليمين (١٤٢٣). صحيح مسلم كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(١٩١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٥٩).

(١٩٢) في ظلال القرآن (٤/٢٣٩١) .

المبحث الخامس

طرق اكتساب الصبر

يجب أن يتحلى المؤمن بأمور ليكون من عباد الله الصابرين ومنها:

١- الاستعانة بالله تعالى على الصبر (بأنواعه الثلاثة) قال تعالى: ﴿ وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ ﴾ [سورة البقرة ٤٥].

٢- اليقين بالفرج من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا (٥) إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا (٦) ﴾ [سورة الشرح ٥-٦].

٣- عدم تمني البلاء: قال ﷺ: (لا تمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاصبروا)(١٩٣)

٤- تَذَكُّرُ أجر الصابرين وما أعد الله لهم عنده في الدنيا أو الآخرة.

٥- مقابلة المصيبة بالدعاء الذي وصانا به رسول الله ﷺ كما جاء في الحديث: (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلاَّ آجَرَهُ الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها)(١٩٤).وقال تعالى:﴿ وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٥٥) ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ (١٥٧) ﴾[سورة البقرة ١٥٥-١٥٧]. وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ (١٧٣) فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾.

٦- الصبر عند الصدمة الأولى: قال ﷺ: (إنما الصبر عند الصدمة الأولى)(١٩٥).

٧- عدم التشكي وإظهار السخط من المصيبة، أو الفخر والتباهي بالصبر والتصبر، فإن ذلك يحبط أو ينقص الأجر، فالتفاخر بالصبر يأتي بالرياء، والتشكي والتسخط يأتي بعدم الرضى بأقدار الله، فيقع العبد في خطأ ويفوت على نفسه خير عظيم.

٨- تذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه وشريح القاضي رحمه الله: "ما أصبت بمصيبة إلا حمدت الله على أربع أشياء: أنها لم تكن في ديني، أنها لم تكن أكبر منها، أن الله يعوضني عنها الجنة، أني تذكرت مصيبتي برسول الله ﷺ"(١٩٦).

---

(١٩٣) صحيح البخاري كتاب الجهاد والسيرة باب كان النبي ﷺ إذا لم يقاتل أول النهار أخر القتال حتى تزول الشمس (٢٩٦٦). صحيح مسلم كتاب الجهاد والسيرة باب كراهة مني لقاء العدو (١٧٤٢) .

(١٩٤) صحيح مسلم كتاب الجنائز باب ما يقال عند المصيبة (٩١٨).

(١٩٥) صحيح البخاري كتاب الجنائز باب زيارة القبور (١٢٨٣). صحيح مسلم كتاب الجنائز باب الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى ٩٢٦) .

(١٩٦) أخرجه عن شريح البيهقي في شعب الإيمان ١٩٨/٧ الأثر ٩٩٨٠ ، وتاريخ دمشق ٤٢/٢٣ ، ونسبها لعمر الغزالي في إحياء علوم الدين ١٢٩/٤ ، والمناوي في فيض القدير ١٣٣/٢ عند حديث ١٥٠٦.

ومن هذا البيان يتبين لنا حكمة لقمان رحمه الله حينما وصى ولده بالصبر وخصوصا بعد وصيته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والأمر بالصلاة.

"وهذا هو طريق العقيدة المرسوم: توحيد لله، وشعور برقابته، وتطلع إلى ما عنده، وثقة في عدله، وخشية من عقابه، ثم انتقال إلى دعوة الناس، وإصلاح حالهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، والتزود قبل ذلك بالزاد الأصيل زاد العبادة لله والتوجه إليه بالصلاة، ثم الصبر على ما يصيب الداعية إلى الله من التواء النفوس وعنادها، وانحراف القلوب وإعراضها، ومن الأذى تمتد به الألسن وتمتد به الأيدي، ومن البلاء في المال والابتلاء في النفس عند الاقتضاء، هذا الصبر وصفه الله بأنه: ﴿ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾، فهو قطع للطريق على التردد فيما بعد العزم والتصميم"(١٩٧).

---

(١٩٧) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٠) .

الفصل الثامن

الوصية الثامنة:النهي عن الكبر

المبحث الأول

الكبر حقيقته وحرمته

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ١٨ ﴾.

يشير"لقمان في وصيته لابنه إلى أدب الداعية إلى الله، فالدعوة إلى الله لا تجيز التعالي على الناس والتطاول عليهم باسم قيادهم إلى الخير، ومن باب أولى أن يكون التعالي والتطاول من غير دعوةٍ إلى الخير أقبح وأرذل"(١٩٨)، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا عباد الله إخوانا)(١٩٩)، والتدابر"الإعراض وترك السلام"(٢٠٠).

ونهى في هذه الآية عن المشي في الأرض بين الناس بالكبر والعناد، والذي يفعل ذلك يبغضه الله ولا يحبه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴾.

والكبر من الأمور التي نهي عنها المسلمون أشد النهي وجاء الوعيد الشديد على المتكبرين، كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان فهو يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)(٢٠١).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر).فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسن ونعله حسن؟ قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطَرُ الحق وغمط الناس)(٢٠٢).

بطر الحق: دفعه ورده عن قائله، وغمط الناس: احتقارهم.

ولأن الكبر والإعجاب بالنفس واحتقار الآخرين؛ من الأمور التي تولد الشحناء والبغضاء بين المسلمين، حرمها الله، وجعلها سبباً من أسباب انتقام الله، فهذا قارون خسف الله به، وبداره الأرض؛ في الوقت الذي كان يتبختر في زينته بين قومه، قال تعالى: ﴿ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ٨١ ﴾[سورة القصص ٨١]. ولذلك كان الوعيد عليها شديداً، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ ٣٥ ﴾[سورة غافر ٣٥]. والإعجاب بالنفس يورث الهزيمة أمام الأعداء، قال تعالى: ﴿ لَقَدۡ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي

---

(١٩٨) في ظلال القرآن (٥/٢٧٩٠).

(١٩٩) صحيح البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر (٦٠٦٥)، صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب باب التحاسد والتدابر والتباغض (٢٥٥٩) .

(٢٠٠) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٦٩).

(٢٠١) صحيح البخاري كتاب اللباس باب من جر ثوبه خيلاء (٥٧٩٠) ، صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).

(٢٠٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه (٩١).

مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ (٢٥) ﴾ [سورة التوبة ٢٥]. وقال تعالى: ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ (٣٢) ﴾ [سورة النجم ٣٢].

قال محمد بن الحسن بن علي: "ما دخل قلب رجل شيء من الكبر إلا نقص عقله بقدر ذلك"(٢٠٣).

ونظر طاووس إلى عمر بن عبدالعزيز وهو يختال في مشيته -وذلك قبل أن يستخلف- فطعنه طاووس في جنبه بإصبعه، وقال: "ليس هذا شأن من في بطنه خراء"(٢٠٤).

المبحث الثاني

مظاهر الكبر التي أشارت إليها الآية

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ (١٨) ﴾.

يمكن عرض مظاهر الكبر التي أشارت الآية لها في النقاط التالية:

١ –النهي عن تصعير الخد:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي: "لا تعرض بوجهك عن الناس إذا كلمتهم أو كلموك، احتقاراً منك لهم، واستكباراً عليهم، ولكن ألن جانبك، وابسط وجهك إليهم"(٢٠٥).

"وأصل الصعر: داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلفت أعناقها عن رؤوسها، فشبه به الرجل المتكبر"(٢٠٦). فهذه الصورة عن الكبرياء تشبيه بليغ بعبارة موجزة، متضمنة قبح الفعل وبيان الداعي له، بأنه مرض محقق، سواء اعترف به المريض أم لم يعترف، فالأمر بيّنٌ واضحٌ للناس.

٢ –النهي عن التكبر في المشية:

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًا ﴾ أي:"جذلاً متكبرًا جبارًا عنيدًا"(٢٠٧).

وقال تعالى موصياً نبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا (٣٧) ﴾[سورة الإسراء٣٧]."أي: لا تمشى في الأرض متبختراً متمايلاً كما يفعل الجبارون، فإنك لن تقطع الأرض بمشيتك هذه، ولن تبلغ الجبال طولا بتمايلك وفخرك وإعجابك بنفسك"(٢٠٨).

٣ –النهي عن الإعجاب بالنفس:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ ﴾. أي:"معجب في نفسه"(٢٠٩).

---

(٢٠٣) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٤٦) .

(٢٠٤) تفسر ابن كثير (٦/ ٣٤٦) .

(٢٠٥) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٨) .

(٢٠٦) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٨) .

(٢٠٧) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٩) .

(٢٠٨) تفسير ابن كثير (٥/ ٧٦) بتصرف .

"والمختال: من الخيلاء وهو التبختر في المشي كبراً وقلة مبالاة بالناس ، وهي حركة يبغضها الله ورسوله وهي تعبير عن شعور مريض بالذات"(٢١٠).

"ففي هذه الصفة النهي عن الافتخار على الغير: متزيناً بحليته مرائياً بما آتاه الله تعالى من فضله، على وجه العظم واحتقار الغير، يأنف من أن ينسب إليه أقاربه الفقراء، ويقذر جيرانه إذا كانوا ضعفاء، فلا يحسن إليهم لئلا يلمّوا به فيعيَّر بهم"(٢١١).

٤ -النهي عن الافتخار على الناس:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ﴾ **أي:** "فخور على غيره"(٢١٢)، "الذي يعدد مناقبه كبراً"(٢١٣)، ويفتخر على الناس بغير الحق تكبرًا (٢١٤)، مبالغاً في التمدح بالخصال، يأنف من عشرة الفقراء(٢١٥).

"وفي ذلك أتم ترهيب من الخلق المانع من الإحسان، وهو الاختيال على عباد الله، والافتخار عليهم ازدراء بهم، فإنه لا مقتضى لذلك لأن الكل من نفس واحدة، والفضل نعمة منه سبحانه، يجب شكرها بالتواضع لتدوم، ويحذر كفرها بالفخار خوفاً من أن تزول"(٢١٦).

المبحث الثالث

طرق اكتساب التواضع

يجب على المسلم أن يسعى لأن يكون متواضعاً، استجابة لأمر الله ورسوله، وللتواضع طرق يمكن اكتسابه من خلالها ومنها:

١ -دعاء الله تعالى أن ينجيك من هذا المرض.

٢ -تذكر حقارة نفسك: كما قال بعض الصالحين:"ما بال من أوله نطفة مذرة، وآخره جيفة قذرة، و هو بين ذلك وعاء لقذرة أن يفخر"(٢١٧)، وما فعله مسروق مع أمير المدينة- سبق ذكره.

٣ -النظر إلى من هو أعلى منك في الدين والخُلق لكي تتواضع نفسك.

٤ -النظر والاعتبار بتواضع رسول الله ﷺ.

٥ -أن تتواضع لكل من هو أقل منك: فتتواضع للصغير والكبير الطاعن في السن، والفقير والمريض، والجاهل والعالم، وذلك: بالسلام عليهم، ومصافحتهم، وخدمتهم وإعانتهم، وإطعامه، والرحمة بهم، والأخذ بأيديهم على

---

(٢٠٩) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٩) .

(٢١٠) في ظلال القرآن (٥/٢٧٩٠) .

(٢١١) نظم الدر (٢/٢٠٨).

(٢١٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٣٩) .

(٢١٣) القرطبي (١٤/٧٠).

(٢١٤) البغوي (٢/٢١٣).

(٢١٥) نظم الدر (٢/٢٠٨).

(٢١٦) نظم الدر (٢/٢٠٨).

(٢١٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان ٢٩٤/٦ الأثر ٨٢١١، تاريخ دمشق ٣٢٨/٢٤ ، وابن أبي الدنيا في قرى الضيف ٢١١/١ ، وأصبح مثلاً كما في مجمع الأمثال ٤٥٣/٢.

الحق، واللين معهم في الخطاب، وغير ذلك من أوجه البر والإحسان التي تصلك بربك، وتزيد في تحسين خلقه التواضع.

٦ -التجاوب العكسي مع الموقف السلبي: فأي موقف تحس فيه بالكبر والخيلاء حوّله إلى تواضع مباشرة، مثلاً كنت تمشي في الشارع ورأيت أحد عمال النظافة فاستحقرته، وقلت في نفسك أنك أفضل منه، فمباشرة تواضع له، وأَذْهِب هذا الكبر بمصافحته مثلاً، والحديث معه، وتقديره. وقس على ذلك جميع المواقف.

عن المعرور بن سويد قال: مررنا بأبي ذر وعليه برد، وعلى غلامه مثله، فقلنا: يا أبا ذر لو جمعت بينهما كانت حُلَّة؟ فقال: إنه كان بيني وبين رجل من إخوتي كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيرته بأمه، فشكاني إلى النبي ﷺ، فلقيت النبي ﷺ فقال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية) قلت: يا رسول الله من سب الرجال سبوا أباه وأمه قال: (يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، وألبسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم)(٢١٨).

هذه بعض المقترحات لاكتساب التواضع، نسأل الله تعالى أن يجعلنا من الذين يتواضعون ولا يتكبرون، ويحسنون ولا يسيئون، ويعلمون فيعملون.

---

(٢١٨) صحيح مسلم كتاب الأيمان باب إطعام المملوك مما يأكل وإلباسه مما يلبس ولا يكلفه ما يغلبه (١٦٦١).

الفصل التاسع

الوصية التاسعة: القصد في المشي

المبحث الأول

القصد في المشي من صفات المؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾

أي: "امش مشيًا مقتصداً ليس بالبطيء المتثبط، ولا بالسريع المفرط، بل عدلاً وسطاً بين بين"(٢١٩). "وهذه الصفة والتي تليها من تمام المروءة التي يتحلى به أصحاب الخلق والسمت الحسن ويغفل عنها الساقطون"(٢٢٠).

"وهكذا يؤدب الله عباده ويضمن كتابه ما فيه سعادتهم حتى لم يترك أدبهم في المشي والحديث"(٢٢١).

والقصد هو: "ما بين الإسراع والبطء، أي لا تدب دبيب المتماوتين، ولا تثب وثوب الشطار"(٢٢٢).

قال الزهري: (سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن)(٢٢٣)، أي:"هيبته وجماله وتورثه حقارة في أعين الناس، وكأن ذلك لأنها تدل على الخفة، ولأنها تُتْعِب فتغير البدن والهيئة، فالمراد بالإسراع فيه ما فوق دبيب المتماوت، وهو: الذي يخفي صوته ويُقِلُّ حركاته مما يتزيا بزي العُبَّاد، كأنه يتكلف في اتصافه بما يقربه من صفات الأموات، ليوهم أنه ضَعُف من كثرة العبادة.

وهذا لا ينافيها قوله تعالى: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾[سورة الفرقان ٦٣] إذ ليس الهون فيه المشي كدبيب النمل، وذكر بعض الأفاضل أن المذموم اعتياد الإسراع بالإفراط فيه، وقال السخاوي: محل ذم الإسراع ما لم يخش من بطء السير تفويت أمر ديني، لكن أنت تعلم أن الإسراع المذهب للخشوع لإدراك الركعة مع الإمام مثلاً مما قالوا إنه مما لا ينبغي فلا تغفل، وعن مجاهد أن القصد في المشي التواضع فيه"(٢٢٤).

وقد مدح الله سبحانه وتعالى الذين يمشون على الأرض هونا فقال تعالى:﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ﴾[سورة الفرقان ٦٣]"فهم يمشون في حياتهم هونا أي في سكينة ووقار"(٢٢٥).

قال ابن القيم:"فأعدل هذه المشيات مشية الهون والتكفؤ وهي مشية عباد الرحمن كما وصفهم بها في كتابه فقال: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ قال غير واحد من السلف: بسكينة ووقار من غير تكبر ولا تماوت وهي مشية رسول الله ﷺ"(٢٢٦).

---

(٢١٩) تفسير ابن كثير(٦/٣٣٩).

(٢٢٠) من لطائف التفسير (٣/ ٢٦٤).

(٢٢١) لقمان الحكيم وحكمه (ص ١٥٢) .

(٢٢٢) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٧١).

(٢٢٣) القرطبي(١٣/٦٨).

(٢٢٤) روح المعاني(٢٠/٩٠-٩١) مختصراً.

(٢٢٥) الجامع لأحكام القرآن (١٣/ ٦٨) .

"فها هي ذي السمة الأولى من سمات عباد الرحمن: أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، ليس فيها تكلف ولا تصنع، وليس فيها خيلاء ولا تنفج، ولا تصعير خد ولا تخلع أو ترهل. **فالمشية ككل حركة تعبير عن الشخصية، وعما يستكن فيها من مشاعر.** والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تخلع صفاتها هذه على مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة. فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة. وليس معنى::﴿ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا ﴾ أنهم يمشون متماوتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان؛ كما يفهم بعض الناس**!!**"(٢٢٧).

ومن هنا جاء الحديث عن هديه ﷺ في المشي لكي نقتدي به ﷺ إذ هو أعظم من مشى على هذه الأرض هوناً متواضعاً جالباً للخير مانعاً عن الشر.

المبحث الثاني

هديه ﷺ في المشي

لقد امتثل النبي ﷺ القصد في المشي، فأوضحت لنا سنته العملية أنه:"كان إذا مشى تكفأ تكفؤا(٢٢٨)، وكان أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة ﵁: (ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله ﷺ، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحد أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ كأنما الأرض تطوى له، وإنا لنجهد(٢٢٩) أنفسنا وإنه لغير مكترث(٢٣٠))(٢٣١).

وقال علي بن أبي طالب ﵁: (كان رسول الله إذا مشى تكفأ تكفؤا كأنما ينحط من صبب(٢٣٢))(٢٣٣)، وقال مرة: (إذا مشى تقلع)(٢٣٤) قلت[ابن القيم]: التقلع الارتفاع عن الأرض بجملته، كحال المنحط من صبب، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة، وهي أهدأ المشيات، وأروحها للأعضاء، وأبعدها من مشية الهوج والمهانة، والتماوت(٢٣٥).

---

(٢٢٦) انظر زاد المعاد (١/١٦٧) بتصرف .

(٢٢٧) في ظلال القرآن (٢٥٧٧).

(٢٢٨) تَكَفى تَكَفِّياً : أي تمايل إلى قُدّام. انظر: النهاية (٤/٣٣٧). أي يرفع القدم من الأرض ثم يضعها ولا يمسح قدمه على الأرض كمشي المتبختر، انظر عون المعبود(١/١٦٦).

(٢٢٩) لنجهد أنفسنا : أي لنتعب أنفسنا . يقال جهد دابته وأجهدها إذا حمل عليها فوق طاقتها فالمعنى إنا لنحمل على أنفسنا من الإسراع عقيبة فوق طاقتها، انظر : تحفة الأحوذي(١٠/٩١).

(٢٣٠) لغير مكترث : اسم الفاعل من الاكتراث ، والمعنى : غير مبال بمشينا أو غير مسرع بحيث تلحقه مشقة فكأنه يمشي على هينة يقال مبال به أي متعب نفسه فيه ، انظر : تحفة الأحوذي(١٠/٩١).

(٢٣١) سنن الترمذي كتاب المناقب باب١٢ (٣٦٤٨)وقال: حسن غريب ، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٢٣٢) ينحط من صبب : أي يرفع رجله عن قوة وجلادة ، انظر عون المعبود(١/١٦٦).

(٢٣٣) سنن الترمذي كتاب المناقب باب٨ (٣٦٣٧).وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٧٧).

(٢٣٤) سنن الترمذي كتاب المناقب باب٨ (٣٦٣٨).وقال:حسن غريب.وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي.

(٢٣٥)الهوج والمهانة ، والتماوت : شرح ابن القيم رحمه الله هذه الثلاث مشيات بقوله : "فإن الماشي إما أن يتماوت في مشيه ويمشي قطعة واحدة كأنه خشبة محمولة وهي مشية مذمومة قبيحة وإما أن يمشي بانزعاج واضطراب مشي الجمل الأهوج وهي مشية مذمومة أيضا وهي دالة على خفة عقل صاحبها ولا سيما إن كان يكثر الالتفات حال مشيه يمينا وشمالاً" انظر زاد المعاد (١/ ١٦٧).

وكان يسوق أصحابه ويمشي حافياً ومنتعلا، وكان يماشي أصحابه فرادى وجماعة، وكان ﷺ في السفر ساقة(٢٣٦) أصحابه: يزجي(٢٣٧) الضعيف، ويردفه، ويدعوا لهم(٢٣٨)"(٢٣٩).

المبحث الثالث

آداب المشي

بعد عرض هديه ﷺ في المشي نحاول أن نستنبط بعض الآداب التي حثنا عليها الشرع في المشي(٢٤٠). فمن هذه الآداب:

١- استحضار النية الصالحة في كل أمر يمشى إليه:

فالمسلم عندما يريد أن يذهب إلى مكان ما، فعليه أن يحتسب مشيته عند الله، فمثلا الذي يريد أن يذهب للعمل، فيحتسب عند الله أنه يمشي إلى العمل؛ لكي يطعم أولاده ويعفهم عن الحرام، والذي يمشي لزيارة أقاربه؛ يحتسب عند الله أنها صلة رحم، والذي يمشي للرياضة؛ يحتسب عند الله التقوي على طاعة الله والجهاد في سبيل الله، وهكذا سائر عمله وحركته. فعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه)(٢٤١).

فعلينا أن نحول العادات إلى عبادات وذلك باستحضار نية العمل الصالح، وفضل الله واسع حيث أنه يجازي على العمل المباح الأجر الكثير؛ إذا كانت النية خالصة لله تعالى. فعن أبي ذر الغفاري ﷺ قال: أن ناساً من أصحاب النبي قالوا للنبي ﷺ يا رسول الله: ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلى، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم!! قال ﷺ: (أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون به؟ إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وبكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وأمر بمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة) قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟!! قال (أرأيتم إن وضعها في حرام أيكون عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر)(٢٤٢).

فهنا جعل الرسول ﷺ الأمر المباح الذي يستمتع به صدقة دليل على أن العادات لو احتسب فيها النية لله تعالى تحولت إلى عبادات(٢٤٣).

---

(٢٣٦) ساقة الجيش : أي مؤخرة الجيش .

(٢٣٧) يزجي : أي يسوق .

(٢٣٨) انظر سنن أبو داود كتاب الجهاد باب لزوم الساقة (٢٦٣٩) . صححه الألباني في صحيح سنن أوبوا داود .

(٢٣٩) لقد أفرد الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابه زاد المعاد - فصل في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه ، انظر زاد المعاد (١٦٧/١) وهذا مختصر منه.

(٢٤٠) الآداب الإسلامية–عبد العزيز بن فتحي السيد — ص(٧٧٩) .

(٢٤١) صحيح البخاري كتاب بدأ الوحي باب كيف كان بدأ الوحي إلى رسول الله ﷺ(١) . صحيح مسلم كتاب الأمارة باب(إنما الأعمال بالنيات) (١٩٠٧).

(٢٤٢) صحيح مسلم كتاب الزكاة باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١٠٠٦).

(٢٤٣) للاستزادة حول هذه النقطة وكلام العلماء: يراجع شروح الأربعين النووية للأحاديث (٢٥-٢٦-٢٩).

٢- عدم المشي إلى الحرام:

قال تعالى:﴿ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٢٤ ﴾ [سورة النور ٢٤]. فالإنسان تشهد عليه أعضائه يوم القيامة إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

٣- ذكر دعاء الخروج:

دعاء الخروج من المترل ودعاء المشي إلى الصلاة، أو دعاء ركوب الدابة، وغيرها من الأدعية والأذكار، لما في ذلك من حفظ الإنسان من المكروه، وإتباع لسنة رسول الله ﷺ في ذلك.ولما في هذه الأذكار من الثواب الكبير عند الله تعالى.

٤- التواضع وترك التكبر في المشي:

كما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان فهو يتبختر فيهما، إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة)(٢٤٤).

فإن التكبر في المشي مما يبغضه الله تعالى فقد قال الله عز وجل: ﴿ وَلَا تَمۡشِ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولاً ۝٣٧ ﴾[سورة الإسراء ٣٧]، وقال تعالى:﴿ وَلَا تَمۡشِ فِى ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٍ فَخُورٍ ۝١٨ ﴾.

٥- القصد في المشي:

أي التوسط في المشي بين السرعة والبطيء. قال تعالى: ﴿ وَٱقۡصِدۡ فِى مَشۡيِكَ﴾.

٦- لا يلتفت وهو يمشي:

فإن النبي ﷺ"كان لا يلتفت وراءه إذا مشى"(٢٤٥)، وذلك خشيةً على الماشي أن يحصل له سوء؛ من سقوط في حفرة، أو الاصطدام بسيارة أو نحوها، وأيضا لكي لا يظن الناس به سوءاً، كأن يظنون أنه سارق يخاف من يتتبعه، أو هارب من يد العدالة فهو ملاحق ونحوها.

٧- عدم مشي النساء في وسط الطريق:

فقد نهى رسول الله عن ذلك صيانة للمرأة وحفاظا عليها من أعين الناس فقد روى أبوهريرة ﵁ عن النبي ﷺ أنه قال: (ليس للنساء وسط الطريق)(٢٤٦).

٨- عدم مخالفة القوانين المتعلقة بتنظيم السير والسلامة:

لان ذلك في مصلحة للأمة، حيث أن التقيد بالسرعة المحددة وإشارات المرور، وعدم الوقوف في أماكن يمنع فيها الوقوف بسبب الزحمة أو غيرها، كل هذه وغيرها مما فيه مصلحة للناس، وعدم المشقة عليهم، وحفظا لدمائهم، وأموالهم، أن تهدر بسبب سرعةٍ في القيادة أو قطعٍ للإشارة، أو أي مخالفة لما يحتاجه الناس من نظام.

٩- عدم المشي بنعل واحد:

---

(٢٤٤) صحيح البخاري كتاب اللباس باب من جر ثوبه خيلاء (٥٧٩٠) ، ومسلم كتاب اللباس والزينة باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه (٢٠٨٨).

(٢٤٥) سنن الترمذي كتاب المناقب باب٨ ح(٣٦٣٧). وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٢٨٧٧).

(٢٤٦) شعب الإيمان للبيهقي (٧٨٢٣)، صحيح ابن حبان (٥٥٧٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥١١/٢ح(٢٨٦٥).

فلا ينبغي للمسلم أن يمش وفي إحدى رجليه نعل والأخرى حافية فإن ذلك لا يليق بالمسلم إذ فيه ذهاب الهيبة، ولفت أنظار الناس مما يجلب الاستنكار والاستهزاء.

فإن رسول الله ﷺ نهى عن ذلك فقال ﷺ: (إذا انتعل أحدكم فليبدأ باليمنى، وإذا خلع فليبدأ بالشمال، ولينعلهما جميعا، أو ليخلعهما جميعا)(٢٤٧).وذلك حتى لو انقطع أحد نعليه، فإن النبي ﷺ قال: (إذا انقطع شسع أحدكم فلا يمش في نعل واحد حتى يصلح شسعه، ولا يمش في خف واحد)(٢٤٨).

---

(٢٤٧) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب استحباب لبس النعل باليمنى أولاً (٢٠٩٧) . صحيح البخاري كتاب اللباس باب يترع لا يمشي بنعل واحدة (٥٨٥٥) .

(٢٤٨) صحيح مسلم كتاب اللباس والزينة باب النهي عن اشتمال الصماء والاحتباء في ثوب واحد (٢٠٩٩).

الفصل العاشر

الوصية العاشرة: خفض الصوت

المبحث الأول

الحكمة في الأمر بغض الصوت

قال تعالى: ﴿ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾

أي: "لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه"(٢٤٩)، "وانقص منه، لا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ما تحتاج إليه، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤذي، فإن أنكر الأصوات أي أقبحها وأوحشها صوت الحمير"(٢٥٠).

"فالأسلوب القرآني يُريد ذل هذا الفعل، ويقبحه في صورة منفرة محتقرة بشعة، حين يعقب عليه بقوله: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩ ﴾ فيرتسم مشهد مضحك يدعوا إلى الهزء والسخرية، مع النفور والبشاعة"(٢٥١)، فقد مثل بالحمير، لأن أصواتها مؤذية في سماعها، ولأنها عالية لا يحب أحد أن يسمعها.

"فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة ومصلحة، لما اختص بذلك الحمار، الذي قد علمت خسته وبلادته"(٢٥٢).

"والظاهر أن المراد بالغض من الصوت الغض منه عند التكلم والمحاورة، وقيل: الغض من الصوت مطلقاً فيشمل الغض منه عند العطاس، فلا ينبغي أن يرفع صوته عنده، إن أمكنه عدم الرفع، وروي عن أبي عبد الله رضي الله تعالى عنه ما يقتضيه، ثم أن الغض ممدوح إن لم يدع داع شرعي إلى خلافه"(٢٥٣).

"وأردف الأمر بالقصد في المشي، بالأمر بالغض من الصوت، لَمَّا أنه كثيراً ما يتوصل إلى المطلوب بالصوت بعد العجز عن التوصل إليه بالمشي كذا قيل، وقيل: إن الأول إشارة إلى التوسط في الأفعال، والثاني إشارة إلى الاحتراز من فضول الكلام، والتوسط في الأقوال"(٢٥٤).

"فهذه الآية: أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاونا بهم، أو بترك الصياح جملة"(٢٥٥).

"فالغض من الصوت فيه أدب. وثقة بالنفس. واطمئنان إلى صدق الحديث وقوته. ولا يغلط ويزعق في الخطاب إلا سيء الأدب، أو شاك في قيمة قوله، أو قيمة شخصيته"(٢٥٦)، فغض الصوت: "أوفر للمتكلم،

---

(٢٤٩) تفسير ابن كثير(٦/٣٣٦).

(٢٥٠) في ظلال القرآن (٥/٢٧٩٠).

(٢٥١) الجامع لأحكام القرآن (١٤/ ٧١) .

(٢٥٢) تفسير السعدي(٦٢٧).

(٢٥٣)روح المعاني (٢١/ ٩١) .

(٢٥٤)روح المعاني (٢١/ ٩١) .

(٢٥٥) الجامع لأحكام القرآن (١٤/٧٢) .

(٢٥٦) في ظلال القرآن (٥/ ٢٧٩٠).

وأبسط لنفس السامع وفهمه"(٢٥٧)، "ورفع الصوت يؤذي السامع،ن ويقرع الصماخ بقوة، وربما يخرق الغشاء الذي هو داخل الأذن"(٢٥٨).

ومن هنا يُعلم أن للحديث آداباً يجب التحلي بها حفاظا على مروءة الإنسان وقدره بين الناس.

المبحث الثاني

آداب الحديث

من أهم آداب الحديث(٢٥٩) ما يأتي:

١ -**عدم رفع الصوت:**

لأن رفع الصوت فيه سوء أدب مع الإنسان الذي تتحدث معه وهو مقتضى الأمر بغض الصوت في الآية الكريمة.

٢ -**حفظ اللسان:**

وحفظ اللسان يكون عن كل ما حرمه الله من (غيبة، ونميمة، وقول الزور، والبهتان، والقول الفاحش البذيء، والكذب......) فقد يتكلم المرء كلمة توبق دنياه وآخرته، قال رسول الله ﷺ: (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين فيها فيزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)(٢٦٠). والرسول ﷺ قد ضمن الجنة لمن صان لسانه وفرجه، فقال ﷺ : (من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة)(٢٦١).

٣ -**قل خيراً أو اصمت:**

هذا أدب نبوي أدبنا به رسول الله ﷺ، وهي قاعدة يجب أن يعيها الإنسان قبل أن يتلفظ بأي كلمة، ويسأل نفسه هل هذه الكلمة خيرا أم شرا؟ فإذا كانت خيراً فالحمد لله، وإن كانت شرا فلا ينطق بها، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت)(٢٦٢).

والشيء الملفت للانتباه هنا أن الله ربط بين الإيمان وقول الخير أو الصمت عند إرادة القول الباطل، وهذا دليل على خطورة الأمر.

٤ -**ترك الجدال:**

لما يسبب من الشحناء بين المسلمين، وقد ورد عن النبي ﷺ فضل من ترك الجدال فقال ﷺ: (أنا زعيم بيت في ربض(٢٦٣) الجنة لمن ترك المراء ولو كان محقا...)(٢٦٤).

---

(٢٥٧) روح المعاني (٢١/ ٩٠) .

(٢٥٨)روح المعاني (٢١/ ٩١) .

(٢٥٩) كتاب الآداب— فؤاد الشلهوب (ص١١٤) . باختصار .

(٢٦٠) صحيح البخاري كتاب الرقائق باب حفظ اللسان (٦٤٧٧) . وصحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق باب التكلم بالكلمة يهوي بها في النار (٢٩٨٨) .

(٢٦١) صحيح البخاري كتاب الرقاق باب حفظ اللسان (٦٤٧٤).

(٢٦٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر) (٦٠١٨) . صحيح مسلم متاب الإيمان باب الحث على إكرام الضيف والجار. (٤٧) .

٥ -التأني في الكلام والتقليل منه وعدم الإسراع فيه:

لأن هذا يؤدي إلى مظنة عدم فهم الكلام على وجهه من لدن المستمع ولذا كان كلام رسول الله لا عجلة فيه. فقد ورد عن عائشة ﵂ أنها قالت تصف كلام رسول الله (إن النبي ﷺ كان يحدث حديثا لوعده العاد لأحصاه)(٢٦٥). وفي رواية: (كان رسول الله لا يسرد سردكم هذا)(٢٦٦).

فهذه أهم الآداب التي تراعى عند الحديث وهو يخاطب الناس وهي جزء من لفظ أو معنى غض الصوت، ومن مقتضيات هذا الحكم والحكمة الواردة في الآيات على لسان لقمان ﵁، وهناك آداب أخرى تندرج تحت هذه الآداب.

---

(٢٦٣) أي ما حولها خارجا عناها ، تشبيها بالأبنية التي تكون حول المدن .اللسان (٧/ ١٥٢) مادة ربض.

(٢٦٤) سنن أبو داود كتاب الأدب باب حسن الخلق (٤٨٠٠) . السلسلة الصحيحة (١/٥٥٢ح٢٧٣).

(٢٦٥) صحيح البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٧) .

(٢٦٦) صحيح البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي ﷺ (٣٥٦٨). صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل أبي هريرة (٢٤٩٣).